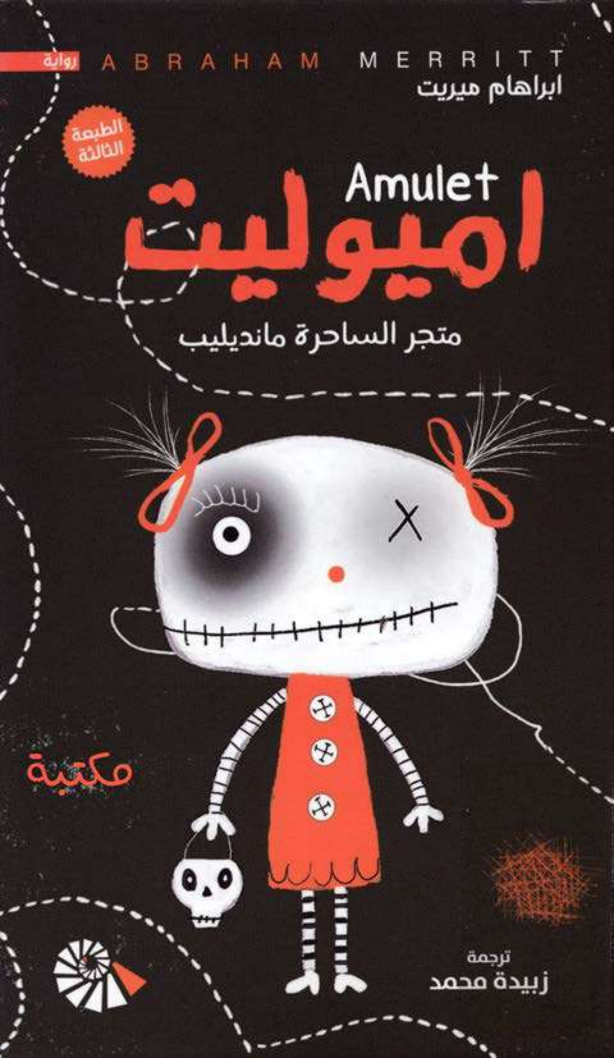
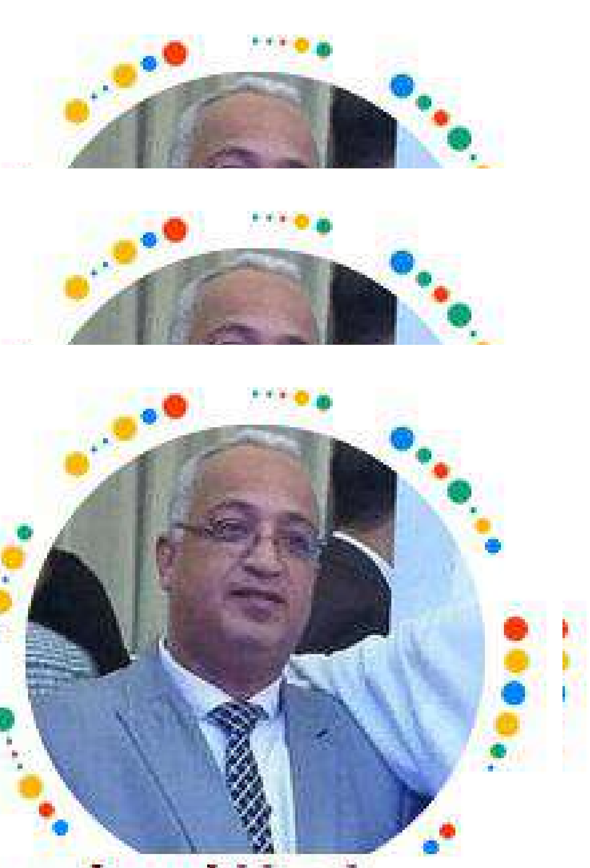

رواية
ABRAHAM MERRITT
ابراهام ميريت
الطبعة الثالثة
Amulet
اميوليت
متجر الساحرة مانديليب
مكتبة
ترجمة
زبيدة محمد



mohamed khatab

ابراهام ميريت

اميوليت

متجر الساحرة مانديليب

ترجمة وإعداد
زبيدة محمد

رواية

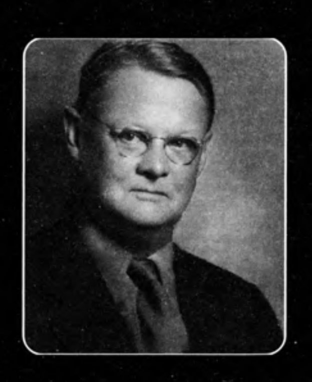


أميوليت/ متجر الساحرة مانديليب
ابراهام ميريت
ترجمة زبيدة محمد
الطبعة الثالثة 2022
عدد النسخ: 2000

Cemetery of books@gmail com

التصميم : ماهر عدنان
ISBN 978-9922-9369-7-0
9 789922 936970



ابراهام ميريت

وُلد ابراهام ميريت (١٨٨٤-١٩٤٣) في بيفرلي ، نيو جيرسي ، وانتقل إلى بنسلفانيا فيما بعد حيث تلقى تعليمه في مجال القانون قبل أن يمتهن الصحافة.

عمل مراسلاً صحفياً وتعرّض إبان تلك الفترة لتجربة مروّعة رفض التحدّث عنها ، إلّا أنّه أكدّ أن تلك التجربة كانت نقطة تحول في حياته ، ثم عمل محرراً بعد ذلك.

كان ميريت واحداً من أعلى الصحفيين أجراً ، ولم يكن خيالهُ الفذّ سوى هامش في مسيرته الصحفية.

استثمر ميريت مالهُ في الهوايات الغريبة كزراعة بساتين الفاكهة ، والنباتات ذات العلاقة المباشرة بالسحر ، وقد وُصف بأنّه مريض وأسهب بالحديث عن أعراض مرضه إلى ما لا نهاية ، حيث كان يتوق لتجربة أي طعام أو تبغ يجده أمامه في مكاتبَ العمل الخاصة بزملائه.

تزوج ميريت مرتين وكان يهوى جمع الكتب الغامضة والعناوين الخاصة بالسحر حتى قيل إن مكتبته قد ضمّت أكثر من خمسة آلاف مجلّد.

توفي ميريت فجأة في منزله الشتوي إثر نوبة قلبية عن عمر يناهز ٥٩ عاماً.

«وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ
وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ
الْكَذَبَةِ ، فَنَصِيبُهُمْ فِي الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ ،
الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي».

(رؤيا ٢١:٨)
العهد الجديد
سفر يوحنّا اللاهوتي
الكتاب المقدّس



مُقدّمة

يقولون إن السحر كالسراب، غرَّ من رآه وأخلف من رجاه.

كان لإبراهام ميريت — وهو روائي أمريكي ومحررّ في إحدى المجلات الأمريكية وكاتب خيال رائع — هدفٌ ضمني أدرجهُ بين سطور روايته المشهورة هذه — والتي هي بين أيديكم الآن — وهو أن يلفت أنظار الناس إلى الحقيقة العلمية للسحر الأسود، وهو نوع من أنواع السحر الذي يُحدث ضرراً كبيراً وشروراً عظيمة بالآخرين، كأن يصنع أحدهم تمثالاً لغريمهِ من الشمع أو أي مادةٍ أخرى، ثم يطعن هذا التمثال بالدبابيس حتى يُمزق إلى أشلاء فيلقى حتفه، أو يُلحق الضرر بشخصٍ معيّن بقصد إيذائهِ بطرق مختلفة.

لقد وجدِ السحر في عدّة حضارات، ومنها الحضارة البابلية، فحين نهضت أركان مدينة بابل على ضفاف نهر الفرات والتي كانت تزخر بشتى العلوم والفنون وعلى رأسها السّحر، قال تعالى في كتابه الجليل:

«وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ».

فيما استنكرت الأديان السماوية شَتَّى السحْر

والسّحرة وعدّتهم مطرودين من ملكوت اللّه.

يأخذنا أحد أشهر أطبّاء الأعصاب في الولايات المتحدة ، وأكثرهم التزاماً بالمنطق برحلة إلى غياهب السحر الأسود الذي يرتكز أساساً على الدُّمى والتماثيل فيقوم بصياغتها بشكل أحداثٍ متسلسلةٍ تبدأ بتعدد الوفيات في إحدى مدن أمريكا وتنتهي بتعرّض ذلك الطبيب لصدمةٍ عصبيةٍ هاجمت معتقداته ومنطقه الذي طالما تمسّك به ، فرفض كل ما يخالف العلم وأسماهُ خُرافة ، حتى تبيّن له وجود السحر بعد فقدهِ أعزّ ما يملُك.

تجّلى السحر في هذه الرواية الشيّقة بالتناص مع التنويم المغناطيسي الذي أثبته العلم الحديث ، فشرع يقضي على حياة من يؤمن به من الجهلة وحاملي الخُرافات ، وكيف يكون به ما يُفرّق بين المرء وزوجه ، وما يسلُب العقول ويخطف الأفئدة . فيبقى المرء بعدها مثل هشيمٍ تذروه الرياح ، و كأنه خاوٍ بلا روح ، مسلوب الإرادة ، وضعيف البنية ، محكوماً بالكامل من قِبل السحرة فيمسي لا يُدرك ولا يفعل إلاّ ما يُؤمر ، كعبدٍ ذليل لاحهُ من عذاب الدنيا ما يُضيق الروح ، ويُظلم خلجات النفس البشرية ، ليمزق آخر سحنة إنسانية ويحل محلها شرور الشياطين القادمة من أقاصي

الجحيم.

تُشهدنا هذه الرواية على أشهر طُرق فنون السحر الأسود ، فتتمثّل الساحرة بهيئة صانعة السعادة لكلٍ من الأطفال والطبقة المُترفة من المجتمع ، لتُهيمن عليهم بأبشع الأساليب وتُلقي عليهم شرورها ببراءةٍ لامُتناهية ، فيختلط الأمر ، وتُصبح صانعة السعادة هي نفسها ذات الشرّ والشعوذة ، وتصبح البراءة ضرباً من ضروب الذنوب ويصبح الفن رجساً يتربّص به الشيطان حيناً بعد حين ليمتلئ الجحيم بحطبٍ يزيدها لهباً ، ويغذي أشجار الزّقوم فيها لتصبح مُستقراً ومتاعاً لذوي السحر والمشعوذين.

تم العثور على أول كتاب لتعليم السحر الأسود في إحدى المقابر الفرعونية ، ومن الواضح أنه وقع في قبضة يدٍ شريرة ، نشرتهُ وعلّمته فبات دارجاً يستبيح أرواح الأبرياء ، ويسلبهم حياتهم.

إن من يقعُ في قبضة هذا الشر ، يصبح كمن يرى زهرةً وكأنها كأسٌ من الدم ، يتذوّق المرارة أينما حلّ وأينما دبّت قدمهُ.

من المهم التنويه على أن يروّض الإنسان نفسه فيجرّدها من رغباتها التي إن هيمنت واعتلت ، تصبح نفسهُ أمّارة بالسوء والشرور ، ويصبح من الصعب

السيطرة عليها أو جعلها تتمّلص من قبضة المشعوذين الذين باتوا يعيشون حياتهم من خلال إنهاء حياة غيرهم ، ونفث شرور أنفسهم على الأبرياء ليدنّسوها ويجعلوها عرضة للأوهام.

تم منع هذه الرواية من النشر بالعربية ، لكونها دليلاً خطراً ينفثُ الروح في السحر الأسود مجدداً ، و يعيد أمجاد هاروت وماروت وما عاثوه في الأرض من فسادٍ وشر ، حيث تسلط الضوء على أضلاع مثلث السحر المظلم هذا ألا وهي (الحب — الكراهية — القوة) موكدّةً على أن لا سحر دون تلك الركائز الثلاث ، حيث تعتبر من أهم الدوافع للقيام بأعمال الشر والشعوذة ، كعاشقةٍ نأت عن معشوقها بفعل فاعل ، أو حاقدٍ أراد إلحاق الضرر بغريمهِ ، أو باحثٍ عن مركزٍ وسلطة فيتجلّى السحر أمامه بصورةٍ بهّية ، كأفضل وسيلة ليروم مبتغاه.

يجب على حاملي هذا الكتاب الحذر ممّا ستسوّلهُ لهم نفوسهم بعد قراءة فصول هذه الرواية التي نُقلت عن أشهر حالات الوفيات في نيويورك تأثراً بالسحر الأسود ، وأن لا يسمحوا للجهل أن يكون جليس وحدتهم ورفيق أنفسهم ، لأنه الباب الأوسع لدخول عالم السحر الأسود والخوض في خلجات رموزهِ وماهيته.

ادخلوا عالم متجر الدمى هذا بأفئدةٍ قوية واستعدوا لخوض التجربة الأكثر إثارة وخطورةً على الأطلاق؛ لأن عين الساحرة مانديليب ستلحقكم بعدها كل ليلة ، وستطولكم يداها كلّما تنقّلتم بين صفحات هذا الكتاب ، ومن يدري فقد تسكنه روحها بعد أن باتت رماداً وأحييناها من جديد لتصبح حبيسة كل سطرٍ وكلمة ، فتجعلكم مؤمنين بما تفعل من شرور ، مُعجبين بدّقة صنيعها حتى تأتي الصدمة الكبرى التي نالت من أكثر الناس علماً وجعلته طيّ النسيان.

زبيدة محمد 2021

تمهيد

يتحتّم عليّ القولُ في بادئ الأمر إنني أخاطرُ بتحديد هويّتي وأنّ (لويل) هو اسمي المستعار كما هي أسماء جميع الشخصيات الأخرى في هذه الرواية.

أتقدّم بتعريف نفسي لكم أنا ، الطبيب (لويل) ، متخصص في طب الأعصاب و أمراض الدّماغ بالإضافة إلى علم النفس اللاقياسي الذي يدرس الظواهر النفسية غير الطبيعية مثل دراسة الاضطراب النفسي الذي يؤثر على شعور الإنسان و دراسة صفات ضعاف العقول والموهوبين والمرضى نفسياً و عقلياً حيث تم الاعتراف بيّ كخبير في هذا المجال من قبل اثنين من أهم المستشفيات في ولاية (نيويورك) وتم تكريمي داخل الولايات المتحدة وخارجها مراتٍ عدّة.

لم أشرع بالتعريف عن ماهيتي اختيالاً؛ بل لرغبتي بإظهار كفاءتي في مراقبة الأحداث الفردية التي أوشك إخباركم بها ولسوف تتضح أسباب تهربّي من إظهار هويتي شيئاً فشيئاً ، و مع ذلك ، أريد أن أجزم بأن الحقائق والملاحظات التي تم تجميعها في كتيّبات الحالات الخاصة بمتجر دمى (السيدة مانديليب)

يجب أن توضع قيد التنظيم للإعلان عنها فيما بعد.

أن أقوم بكتابة تقرير يضم الحالات الموسومة وإرسالها إلى أحد الجمعيات الطبية هو أمرٌ لا يخلو من عجب، بيد أنني أدرك تماماً طريقة استقبالهم لحالات كتلك، بل وأستطيع تصور نظراتهم المملوءة بالاشمئزاز والريبة لأنها تتعارض مع كل المفاهيم المقبولة التي يمكن للعقل البشري تفسيرها.

و لكن بعد ما شهدتُ من أحداث، أستطيع تعريف نفسي كطبيب أرثوذكسي — أي كوني طبيب ملتزم بالعقيدة المسيحية كما أقرّتها المذاهب في الكنيسة القديمة — و بدأت فعلياً أتساءل فيما إذا كانت هناك أسباب أخرى غير تلك التي نعترف بها والتي تكمن خارج حدود إدراكنا العلمي، تلك الأسباب ذات القوى، والطاقات التي ننكرها بعناد لأننا لا نجد لها تفسيراً يرضي العقول بينما اعترفت بها كافة التقاليد القديمة لجميع الشعوب، والتي نسميها بجهلنا وقلّة إدراكنا (خرافات).

لم تمت شعلة الظلام كلياً بل كانت ولا زالت تُحرَس من قبل الكهنة الذين يقومون بتمريرها من جيل إلى جيل عبر توافد القرون، حيث بدا وجودها جلياً في أرض النيل قبل أن ترفع الأهرامات في المعابد التي

باتت تنهار تحت الرمال.

لقد وجدت تلك الشرور منذ قديم الزمان لدى قوم (عاد) الذين جعلهم الله – كما يقول العرب – أحجاراً بسبب ممارستهم السحر والشعوذة ، ومن الواضح أن تلك القوى ما تزال تكتسح أوروبا في العصور الوسطى ، تحرق الناس أحياءً ويبدو أن هنالك حكمة وراء أن تلقي تلك الشرور بظلالها عليّ.



فناءٌ مُبهَم

دقّت الساعةُ مُعلنةً عن نزوحِ عقاربها نحو الواحدة بعد مُنتصف الليل عندما كنتُ أسيرُ مُثقل الخطى على درجات سُلّم المستشفى ، في العادة وفي مثل هذا الوقت كنتُ سأكون غاطّاً في نومٍ عميق بيد أنّني اليوم أهتم بحالة مرضية خاصّة حيثُ اتصل بي مساعدي (برايل) ليخبرني ببعض التطورات التي كنتُ أتوق لسماعها.

كانت ليلة في أوائل شهر تشرين الثاني حين جعلني صوت فرامل سيارة بالقرب من مدخل المشفى أتوقف لبرهة؛ لأتبين الخطب الذي يحصل خارجاً متسائلاً عن السبب الذي يجعل أحداً ما يجيء في مثل هذا الوقت من الليل ، عندها خرج رجل لم أتبين كنهه في بادئ الأمر مما جعلني أقلق ، أخذ يلقي بناظريه يميناً ويساراً ثم ركل الباب لينفتح على مصراعيه فتبين لي أنه لم يكن بمفرده.

انحنى الرجلان ، وبدا أنهما يشرعان بالدخول ، ثم لاحظتُ أنهما يحتضنان رجلاً آخر ، بل وبعد فينة من الزمن قاما بحمله ، كان رأسهُ معلقاً على صدره وجسده يتأرجح مع الريح ، وفي هذه الأثناء خرج رجل

آخر من السيارة ذاتها وكان سهلاً عليّ تمييزه ، فقد تم إخطاري بماهيته عدة مرات ، وحتى لو لم يتم ذلك كنتُ سأعرفهُ من خلال الجرائد التي كانت تضجُّ باسمه (جوليان ريكوري) زعيم سيء الصيت بين زعامات العالم السفلي ، حيث جعلني الإعلام على دراية تامة بتفاصيله فقد كان نحيفاً ، وطويل القامة ، بشعر غزاه الشيب ، يرتدي ملابساً لا تخلو من أناقة قط.

توقف الرجلان ، وأنزلوا حملهم أرضاً ، ثم وضعوا أيديهم في جيوب معاطفهم ، أحسستُ بالخطر محدقاً بي ، فدعوتهم إلى الداخل في عجل ، معرفاً عن نفسي قائلاً:

«أنا الطبيب (لويل) وأعمل في هذا المشفى ، تفضلوا بالدخول فوراً».

لم أتلقَ رداً منهم ولم أشهد حركة بل ولم يشيحوا لحاظهم عني ، صعد (ريكوري) أمامهم واضعاً يديه في جيوب معطفه كما البقية ، نظر إليّ ثم أومأ برأسه لمن معه مما جعلني أسترخي ،ثم وجه كلامه إليّ بسرور و لهجة إنجليزية دقيقة للغاية قائلاً:

«أعرفك عز المعرفة أيها الطبيب ، لكني أرجو أن تستغل هذه الفرصة الكبيرة بنصحي لك إذ ليس من الجيد أن تهرع مُرحِبّاً بكل من هب ودب في مثل هذه

الساعة من الليل».

أجبتهُ قائلاً:

«لكنني أعرفك يا سيد (ريكوري)».

ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء ثم أردف بصوتٍ خافت:

«لقد ارتكبت خطأً مضاعفاً بإصدارك حكماً كهذا».

سادت لحظةٌ من الصمت المطبق ليكسرها هو بقوله:

«ومن أكون أنا؟ سأشعر أنني بحالٍ أفضل لو دخلنا».

فتحت الأبواب ودعوتهم للدخول ، فمر الرجلان بأعبائهما ودخل (ريكوري) بعدهما مباشرةً ، ثم دخلتُ أنا ، وبمجرد وصولي أفسحتُ المجال لغرائزي المهنية بالتدخل ، فتوجهت للرجل الذي كان يبدو كجثة هامدة بين يدي من معه ، فيما ألقى الرجلان نظرة سريعة على (ريكوري) وهز الأخير رأسه مبدياً رغبتهُ في أن أُتم عملي.

حالما رفعت رأس المريض حتى سرَّت قشعريرة في جسدي لا تخلو من غرابة ، حيث كانت عيناه مفتوحتين ، لم يكن ميتاً ، أو فاقداً للوعي ، بل ارتسمت على وجهه إمارات الفزع ، لم يكن فزعاً كالذي نألفهُ ، فقد كان من أغرب ما مر عليّ خلال تجاربي طويلة

الأمد مع القضايا العقلانية ، والجنونية اللامحدودة ، كانت عيناه اللتان تنضحان بزرقة البحر ، منتفختان ، وتنبئان عن وجل مريع.

كان (ريكوري) يحدق بي عن كثب ، ثم سألني وهو يتوجس ريبة:

«ترى ما الذي رآه صديقي أيها الطبيب ، أو بتعبير أدق ما الذي تم إعطاؤه إياه حتى يبدو كما هو عليه الآن؟».

ثم أردف:

«أنا شديد الحرص على أن أعلم ما الذي جعله هكذا أو من أولئك الذين يكمنون خلف ما حدث له ولدي كامل الاستعداد في أن أنفق كل قرش أملكه لكي يتعافى ، لا أود أن يحدث لي مثله ويجب التأكد من أن لا أحداً يجرؤ على إلحاق أي مكروه لي».

جاء طاقم المشفى بعد أن استقبلوا إشارةً مني ، أخذوا المريض واضعين إياه على سرير نقّال ، ثم جاء الطبيب المقيم في تلك الأثناء لمس السيد (ريكوري) كوعي وقال متوسلاً:

«أنا أعرف كثيراً عنك أيها الطبيب (لويل) ، وأود أن تتولى كامل المسؤولية فيما يتعلق بقضيتنا هذه».

ساد الصمت للحظة ، شعرتُ خلالها بالتوتر يقطع

أوصالي، ثم تابع بجدية:

«هل يمكنك أن توليه كامل الأهمية وتتخلى عمّن سواه؟ أرجوك أن تقضي كل وقتك في محاولة إيجاد علاج له، وبإمكانك إحضار أي شخص ترغب باستشارته، و كما قلت لك، لا تقلق بشأن النفقات بتاتاً».

قاطعتُ حديثه قائلاً:

«لحظة من فضلك، لدي حالات مرضية أشرف عليها بنفسي ولا يمكنني إهمالها، لكني أعدك بأن أمنحه كل الوقت الذي يمكنني توفيره وسأطلب من مساعدي — الدكتور (برايل) — أن يضعه تحت المراقبة على مدار الساعة، سيكون مراقباً من قبل أشخاص لديهم ثقتي التامة».

رضخ لما قلتُ على مضض، وخضع لإجراءات المشفى التقليدية، فقد أعطاه اسم (توماس بيترز) وسجل نفسه كأقرب صديق للمريض حيث أكد بأن الرجل لا يملك أي علاقات وتولى كامل المسؤولية ثم أخرج لفافة من العملات النقدية بقيمة ألف دولار وأعطاها لإدارة المشفى كتكاليف أولية.

سألتُ السيد (ريكوري) بعدها عما إذا كان يرغب في حضور فحص المريض فوافق على الفور وطلب من

رجلاه أن يتخذوا مواقعهم إلى جانبي باب المشفى وأن يكونوا على أهبة الاستعداد ، ثم ذهبنا أنا والسيد (ريكوري) إلى الغرفة المخصصة للمريض.

جرد طاقم المشفى المريض من ملابسه ، وألقوه على سرير قابل للتعديل ، وغطوه بملاءة ، بينما كان مساعدي ينظر إلى وجه المريض بتجهم واضح وحيرة تملكت كل كيانه ، رأيتُ عندها أن الممرضة المدعوة (والترز) شابة كفوءة وذات ضمير حي وقد كلفتها بمراقبة المريض بينما أومأ (برايل) مشيراً إلى أنه وبكل تأكيد يتعاطى المخدرات.

أجبته:

«ربما ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإنه يتعاطى نوعاً غريباً من المخدرات ، نوعاً لم يمر عليّ من قبل ، انظر صوب عينيه وستعي ما أعني».

حاولتُ إغلاق أجفان (بيترز) و لكن دون جدوى ، فقد كانت تعود لتنفتح على مصراعيها في كل محاولة ولم يتضاءل فيهما الرعب قط.

بدأتُ فحصي ، كان جسمه يقاسي الرعاش بل كان رخواً كالدمى ، بدا لي أن كل عصب حركي قد توقف عن العمل ومع ذلك لم يكن هناك أي شيء يشير إلى إصابته بالشلل كما أن جسده لم يستجب لأي منبه حسي

على الرغم من أنني قمت بالتأثير على جذوع الأعصاب بالضرب الطفيف بيد أن رد الفعل الوحيد الذي حصلتُ عليه كان تقلصاً في حدقة العين المتوسعة ويكاد أن يكون ضئيلاً جداً تحت أقوى ضوء.

جاء بعدها (هوسكينز) — أخصائي في علم الأمراض — لأخذ عيناته من أجل إجراء اختبارات الدم ، تفحصتُ جسده بدقة ، فلم أجد أية ثقوب ، أو جروح ، أو كدمات تشير إلى تعاطيه المواد المخدرة عن طريق الحقن.

كان (بيترز) مشعراً لذا فقد جعلته بإذن من (ريكوري) حليق الصدر والمنكبين ، بل وحتى الرأس فراحت آمالي سدى ، ولم أجد ما بإمكانه إرشادي إلى ما يقاسيه المريض المسكين.

تم أخذ عينات بعدها من معدته وأعضاء الإخراج بما في ذلك الجلد وقمتُ بفحص أغشية الأنف ، والحنجرة لكنها بدت سليمة ، وطبيعية ، كان ضغط الدم منخفضاً ، ودرجة الحرارة غير طبيعية قليلاً ، لكن ذلك ليس مؤشراً خطيراً . ولا دلالة له.

قمتُ بإعطائه حقنة من الأدرينالين ولم يبد أي رد فعل إزائها ، قد يعني ذلك كثيراً حقاً ، ثم قلتُ مخاطباً سريرتي إنني سأقوم بالقضاء على هذا الكابوس من

أجلي وأنني حتماً سأفعل.

على أية حال ، أعطيته الحد الأدنى من المورفين وكل ما تجرأتُ على إعطائه إياه ، ولكن يا للخسارة فقد كان الماء أفضل شيء أقدمتُ على فعله في حقه ، ظلت عيناه مفتوحتين ملؤهما الرعب وبقي نبضه على وتيرة واحدة دونما تغيير.

كان (ريكوري) يراقب كل ما حدث باهتمام مطلق ، وأخبرته أنني فعلتُ كل ما في وسعي ولا أستطيع اتخاذ أي إجراء قبيل صدور تقارير وافية عن العينات ، وما أخفيته سراً بأنني في أشد الحيرة وليس بإمكاني معرفة أي دواء ، أو أي مرض يمكن أن يؤدي إلى مثل هذه الحالة.

قال السيد (ريكوري) ملتمساً أية حجة بأن الطبيب المساعد (برايل) قد ذكر أنه بإمكان المخدرات أن تحدث تأثيراً أيضاً.

أجرى (برايل) مداخلةً موضحاً أن ما قاله بشأن المخدرات لا يعدو كونه اقتراح ، وإنه لم يستطع التعرف — مثلي — تماماً على عقار أو مرض يحدث ذات الأعراض.

نظر السيد (ريكوري) إلى وجه (بيترز) وسرت قشعريرة في كامل جسده فقلتُ له:

«يتوجب علي أن أسألك بعض الأسئلة ، ترى هل كان هذا الرجل مريضاً؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل كان تحت أي رعاية طبية؟ وإن لم يعاني من أي مرض؟ ترى هل تحدث عن أي إزعاج تعرض له قط؟ هل لاحظت أي شيء غير عادي في أسلوبه أو سلوكه؟».

أجاب (ريكوري) بالنفي على كل الأسئلة وأردف:

«كان (بيترز) على اتصال وثيق معي طوال الأسبوع الماضي ، لم يكن مريضاً البتة ، وكنّا نتحدث هذه الليلة في شقتي أثناء تناول العشاء ، وفي تلك اللحظة ترك طعامه ، وأدار رأسه ، كما لو كان يريد سماع شيء ما ، ثم انزلق من كرسيه وأرتطم بالأرض ، وبدا كما تراه الآن ، حدث ذلك بالضبط بعد نصف ساعة من حلول منتصف الليل فأحضرته إلى هنا من فوري».

أجبته بأن ما قاله يعطينا وقت الحادث فقط ولا فائدة من المتبقي ، ضم السيد (ريكوري) كفيه وتلمس أظافره المشذّبة بعناية ثم أعقب أخيراً:

«إذا مات هذا الرجل – أيها الطبيب (لويل) – دون اكتشافك لما أصابه سأدفع لك الرسوم العرفية للمشفى ليس إلا ، وإذا مات وقمت باكتشاف مرضه بعد موته فسأقدم مائة ألف دولار لأي مؤسسة خيرية تسميها ، أما إذا قمت باكتشاف علّته قبل أن يلقى حتفه

وأعدته إلى سابق عهده فسأعطيك المبلغ المذكور آنفاً.

حدقنا فيه أنا وطاقمي ولم أستطع كبح جماح غضبي إزاء ذلك العرض المغري ثم قلتُ له:

«نعيش كلانا في عوالم مختلفة يا سيد (ريكوري) ، لذا سأجيب عليك بما تمليه عليّ مبادئي رغم أنني أجد صعوبة في ذلك ، سأفعل كل ما في وسعي لمعرفة ماهية المرض الذي اجتاح صديقك ، و كنتُ سأفعل الشيء ذاته لو كنتم فقراء ، أنا مهتم به فقط كونه مريضي ويتحتم علي معرفة مشكلته التي تتحداني كطبيب ، ولست مهتماً بك أو بأموالك على الأطلاق ، هذا العرض مرفوض ولا يُسمح النقاش به في أي حال من الأحوال».

لم يُبدِ (ريكوري) أي استياء وقال:

«كنتُ أتوق لجعلك تتولى كامل المسؤولية الآن أكثر من أي وقت مضى».

أجبت:

«على أي حال ، إذا ما دعت الحاجة لرؤيتك فكيف بإمكاني إيجادك ؟».

قال بعد هنيهة:

«من بعد إذنك ، أود أن تكون لي صلة بهذه الغرفة طوال الوقت لذا سأبقي رجلين من رجالي وإذا ما

احتجت لرؤيتي بإمكانك إخبارهم ليدعونني بدورهم».

ابتسمت له فلم يبد أية استجابة وقال:

«لقد ذكرتني بأننا نعيش في عوالم مختلفة، لذا خذ احتياطاتك واذهب بأمان إلى عالمك، وصلٍّ من أجل حياتي الملّغمة بالمخاطر».

لقد كان طلباً لا يخلو من غرابة، لكني وجدت نفسي أميل للإعجاب بالسيد (ريكوري) عندما رأيتُ بوضوح وجهة نظره.

مرت لحظات ساد بها الصمت وغرق الجميع في غياهب أفكارهم، ثم قال (ريكوري):

«لن يكلفك رجالي أية عناء، بل على العكس تماماً، فإذا كان ما أشك في أنه حقيقي صحيحاً، سيكونون بمثابة حماية لك، و أرجوا أن يبقوا ملازمين ل (بيترز) داخل غرفته وخارجها بغض النظر عن المكان الذي يتم اصطحابه إليه».

أجبته مطمئناً إياه:

«لا تقلق، يمكنني ترتيب ذلك بكل تأكيد».

ثم أرسلتُ – بناءً على طلبه – أمراً منظماً إلى حرس بوابات المشفى بالسماح لرجال السيد (ريكوري) بالدخول و الإقامة مع المريض بعد أن شرحتُ الوضع الغريب بالكامل للطبيب المقيم والمشرف وحصلتُ

على التصاريح اللازمة لإقامتهم.

كان رجلا السيد (ريكوري) مهذبان، يرتديان ملابس أنيقة، ولهما سحنة باردة، ألقى أحدهما بلحاظهِ على

(بيترز) وقال باستغراب شديد: «ماذا أرى بحق المسيح!».

كان للغرفة نافذتان، أحدهما مطلّة على الطريق العام والأخرى تُطل على الشارع الجانبي إلى جانب ذلك لم تكن هناك فتحات خارجية باستثناء باب الصالة الكبيرة أما الحمام الخاص فقد كان مغلقاً ولا يحتوي على نوافذ.

تفقد (ريكوري) ورجلاه الغرفة بدقّة وابتعدا — كما لاحظت — عن النوافذ، ثم سألني فيما بعد عن إمكانية إطفاء النور لجعل الغرفة تغرق في الظلام، على الفور أطفأتُ الأنوار فذهب الثلاثة باتجاه النوافذ، فتحوها وتفحصوا بعناية طوابق المشفى الستة المطلة على كلا جانبي الشارع حيث لم يكن ثمة شيء على جانب الطريق سوى باحة واسعة مفتوحة على المتنزه تقابله الكنيسة من الجانب الآخر.

سمعتُ (ريكوري) يقول للرجلان: يجب مراقبة هذا الجانب خصيصاً، وأشار بيده صوب الكنيسة ثم طلب

مني تشغيل الأنوار.

بدأ يسير باتجاه الباب ثم استدار نحوي قائلاً:

«لدي العديد من الأعداء أيها الطبيب (لويل)، كان (بيترز) ذراعي الأيمن لو كان أحدهم مسؤول عمّا حدث له فبالتأكيد لإضعافي، أو ربما لم تسنح له الفرصة لضربي شخصياً، إنني أنظر لما حدث ل (بيترز) بعين الوجل لأول مرة، إنني أخشى حقاً أن أكون التالي فلا رغبة لي بالذهاب إلى الجحيم».

بدأ بفتح الباب متردداً ثم قال:

«لدي رجاء أخير أيها الطبيب، إذا تم استقبال أي مكالمات هاتفية للاستعلام عن حال (بيترز) فدع أحد رجالي يجيب، أما إذا جاء أحد ما إلى هنا، فدعه يخضع للاستجواب من قبلهما».

أمسك بيدي ثم فتح باب الغرفة، كان زوج آخر من المرافقين ينتظره خارجاً، أغلقتُ الباب وعدتُ أنظر إلى (بيترز) بازدراء ..

لو كنتُ متديناً، لقمتُ ببعض الماورائيات عسى أن أجد حلاً للمسألة، وبعد هنيهة تغيرت التعابير التي تعلو وجه (بيترز) فقد زال الرعب وولّت الخيفة، بيد أن نظراته لا تزال تشعرني بأنها تخترق خلجات نفسي، كانت نظرة تنبؤ على حدوث الشر، بل تدل

على رؤيته شيئاً شريراً للغاية لدرجة أنني ألقيت نظرة خاطفة على كتفي لأرى ما إذا كان هناك شيء بشع يزحف فوقه ولكن بلا جدوى.

كان أحد مسلحي السيد (ريكوري) يجلس عند زاوية النافذة مراقباً فناء الكنيسة المقابل بينما جلس الآخر بهدوء عند الباب، أما (برايل) والممرضة (والترز) فقد وقفا إلى جانب السرير.

كان الجميع يحدق ب (بيترز) بنظرات تتوجس خيفة، أما (برايل) فقد أخذ يتفحص الغرفة كما فعلت.

بدت عينا (بيترز) وكأنها تركز علينا نحن الثلاثة بل بدت وكأنها تتفحص الغرفة بأكملها ثم بدت وكأنها تضحك، كانت ضحكة لا تخلو من شر، بل بدت و كأنها ضحكة شيطان قد رجم من جحيمه لفترة طويلة ثم تم استدعائه للعودة أخيراً، كانت أقرب أن تكون فرحة اجتاحت روحاً شريرة حينما هيمنت على ما تروم.

أعلم تماماً أن ما أرويه خِلوٌ من المقارنات العلمية المعقولة بيد أني لم أتمكن من وصف هذا التغيير الغريب بطريقة أخرى.

تلاشى ما أعتلى وجهه من تعابير غريبة ليعود التعبير القديم يكتسح تقاطيع محياه، تنهدتُ براحة

غير معهودة لشعوري بأن حضوراً شيطانياً قد انسحب ، كانت الممرضة ترتعش من فرط الخوف فيما سأل (برايل) بصوت مرتجف فيما إذا وجب عليه إعطاؤه حقنة مهدئة تحت الجلد فأجبتُ بالنفي.

نزلتُ إلى المختبر حيث يقبع الطبيب (هوسكينز) فنظر إلي قائلاً إن نتائج التحاليل الأولية سليمة تماماً ، وأن مريضنا (بيترز) على خير ما يرام فأومأتُ له رغم الشعور بعدم الارتياح الذي اجتاحني بغتةً.

كان لدي حدس غريب يخبرني أن نتائج الاختبارات الباقية لن تظهر شيئاً على حدٍ سواء ، فاجتاحتني قشعريرة تفوق تلك التي خالجتني حين تغيرت سحنة (بيترز) خلال الحضور الشيطاني ، باتت القضية تزعجني برمتها وأعطتني شعوراً مرعباً بأن أقف خارج باب لم يكن من المهم فتحه ، كنت فضلاً عن عدم امتلاكي مفتاحاً يمكنني من عبور ذلك الباب الملغز للقضية ، قد أضعتُ ثقب المفتاح.

لقد وجدتُ حينها أن التركيز في العمل المجهري يمكنني من التفكير بحرية أكبر حين أهوي في مشكلات كهذه لذا فقد أخذتُ بضع مسحات من دم (بيترز) وشرعت أتفحصها بعناية رغم أنني لم أتوقع العثور على أي شيء.

كنت أتفحص إحدى الشرائح التي وضع عليها دم المريض عندما أدركت أنني أنظر إلى شيء لا يصدق فقد انزلق في مجال رؤيتي جسم أبيض غريب يحتوي بداخله على شرارة من الفسفور ، كانت متلألئة مثل مصباح صغير!

اعتقدت في بادئ الأمر أنه كان تأثيراً للضوء ليس إلا لكن لم يغير أي تلاعب في الضوء تلك الشرارة المتوهجة ، فركت عيني ونظرت مرة أخرى ، ثم ندهت الطبيب (هوسكينز) فوراً وطلبتُ منه أن يلقي نظرة ويخبرني فيما إذا رأى شيئاً غريباً.

وضع مقلتيه على عدسة المجهر وبدأ يتلاعب بالضوء تماماً كما فعلت ثم قال وهو لا يزال محدقاً في العدسة:

«هنالك جسم أبيض يحوي بداخله كرة متوهجة من الفسفور ، لا يخفت توهجها عندما أشعل الإضاءة كاملة ولا يزداد حين تقليلها ، إن ما أراه خارج حدود المنطق».

وافقته الرأي ثم قمتُ بعزل الشريحة على أمل عزل الجسم ، لمستهُ بطرف إبرة المعالجة فبدا الجسم و كأنه ينفجر وحدث ما يشبه الوميض فوق الجزء المرئي من الشريحة.

رنَّ هاتف المختبر فأجاب الطبيب (هوسكينز) و قال لي:

"إنه مساعدك (برايل) ، اذهب فأنه يطلبك على عجل".

أوصيتُ الطبيب (هوسكينز) بأن يتابع الأمر بنفسه وهرعت إلى الغرفة التي يقبع (بيترز) فيها ، دخلتُ لأجد الممرضة (والترز) بحال لا تحسد عليه فقد أبيضَ وجهها كالطباشير ، كانت قد أغمضتْ عيناها واقفةً وظهرها باتجاه السرير بينما جثا (برايل) على صدر المريض في محاولة منه أن يسمع نبضه ، اكتسحت موجة من الرعب الشديد فؤادي حين رأيتُ ذات النظرة الشيطانية تعود لتملئ وجه (بيترز) مرة أخرى لكنها اشتدت هذه المرة أكثر فأخذ وجهه يومض مثل مصباح يحترق ، تارةً يكتسحه الرعب و تارةً يجتاحه الشر ، قاطع (برايل) تأملاتي وكلمني بشفاه متصلبة قائلاً أن قلب (بيترز) قد توقف لثلاث دقائق ومن المرجح أن يموت بعد لحظات.

تمدد جسد (بيترز) و أخذ يصدر صوتاً من شفتيه ، أشبه أن يكون صوت قهقهات شيطانية ، لستُ متأكداً بيد أنها تخلو من السحنة الإنسانية ، قفز المسلح الجالس قرب النافذة فكسر كرسيه حين فتح

(ريكوري) الباب و دخل متسائلاً عن حال (بيترز) ، فلم يكمل كلامه حتى رأى وجه صاحبه فجثا على ركبتيه وهمس: «يا إلهي».

لم أستطع أن أشيح بناظري عن (بيترز) ، فقد تم محو الإنسانية من وجهه تماماً ، بل وبدا وكأنه شيطان قادم من جحيم بعض الرسامين المجانين الذين اجتاحوا العصور الوسطى ، حتى عينيه الزرقاوين قد أصبحت تحدق صوب (ريكوري) بكل خبث موجود على الأرض ، تحركت يديه دون إرادة منه وتقلصت أصابعه كالمخالب وبدأت جثته تتقلب بشكل غير منتظم تحت أغطية الفراش.

لأول مرة أقف عاجزاً إزاء الموت ، أقدمتُ على إمالة جفنيه فوق عينيه الساطعتين وغطيتُ وجهه المملوء بالرهبة ثم نظرتُ إلى (ريكوري) الذي كان لايزال جاثياً على ركبتيه يصلي ويبتهل بينما كانت الممرضة

(والترز) تجثو إلى جانبه وذراعها حول كتفيه ، كانت تصلي وتواسيه حتى دقت الساعة معلنةً حلول الخامسة فجراً.

الاستفتاء

عرضتُ على (ريكوري) أن أعود معهُ إلى المنزل، وأدهشني قبولهُ بحذر فقد كان يرتجف بشكل مثير للشفقة.

ركبنا السيارة وشعرتُ أني جثة هامدة جراء الصمت المطبق الذي ساد أرجاء المكان حيث بدت وجوه رجال (ريكوري) المسلحين مغمورة كلياً بالحذر بينما ظلّ وجه (بيترز) يطفو ماثلاً أمام ناظريّ.

بعد هنيهة، أعطيتُ (ريكوري) مسكناً قوياً، وتركتهُ نائماً، بينما لازم رجاله الحراسة.

لقد قمتُ بإخبارهِ سلفاً إنني أريدُ تشريح الجثة، لذا فأننا وجدنا جثة (بيترز) قد سابقت خطانا نحو المشرحة حيث أن جسدهُ بدا وكأنه فقد الليونة بل وأنه تيبّس في غضون ساعة واحدة — و هي مدة قياسية — قمتُ بعدها بالترتيبات اللازمة لتشريح الجثة ثم أخذتُ (برايل) معي إلى المنزل لأخذ قسطٍ من النوم.

عندما استيقظت، ظل شبح الأحداث آنفة الذكر يلازمني، حتى ادلهمّت أفكاري في دجى لا قرار له، كانت الساعة قد دقت مشيرةً إلى الثانية عندما بدأنا

تشريح الجثة.

رفعتُ الملاءة من جسد (بيترز) بتردد ملحوظ وحدقتُ في وجهه بدهشة، كانت السحنة الشيطانية قد تلاشت من تقاطيعه حيث بدا عليه الهدوء جلياً وكأنه وجه رجل فارقتهُ الروح بسلام دون أدنى عذاب في الجسد أو العقل، كان جسده قد أمسى وهو خالياً من الصرامة التي عهدتُ أن أستشعرها فيه، عندها فقط أدركتُ أني أتعامل مع نوع جديد من مسببات الموت، ولم أعلم ماهيتها إطلاقاً.

كقاعدة عامة، لا تعتري الصرامة جسد الميت قبل انقضاء ستة عشر ساعة على الأقل اعتماداً على حالة المريض وسبب الموت، ودرجة حرارة الميت، وعشرات المؤشرات الأخرى، حيث تصل مدة التصلب أحياناً إلى ثمانية وأربعين أو اثنتين وسبعين ساعة بينما يتصلب جسد مرضى السكر بشكل أسرع من غيرهم.

في حالتنا هذه قد بدت الصرامة تكتسح جسد (بيترز) فور أن لقي حتفه ويجب أن تكون قد أنقضت في غضون خمس ساعات بيد أن أحد طاقمي أخبرني بأنه فحص الجثة في حوالي الساعة العاشرة صباحاً وكان يعتقد أن التصلب لم يبدأ بعد، إلا أنه في الواقع قد جاء وتلاشى قبيل ذلك.

يمكن سرد نتائج تشريح الجثة بجملتين اثنتين ، إحداهما تجزم بأنه لم يكن هنالك سبب مؤكد لعدم بقاء (بيترز) على قيد الحياة ، والأخرى هي حقيقة موته وكذا الحال عندما قدم الطبيب (هوسكينز) تقريره ، فقد بقيت هاتان العبارتان المتناقضتان تماماً في صحتيهما ألا وهما عدمية وجود أية أسباب تبرر وفاة (بيترز) و مع ذلك فقد مات.

إذا اعتبرنا أن لتلك التوهجات علاقة وثيقة بموته؛ فإن عدم تركها لأية آثار ينفي جميع اعتباراتنا حيث كانت صحة أعضائه مثالية بشكل يكاد يبعد أشد البعد عن مدارك التصديق.

بعد أن انتهت تلك العملية الشاقة ذاك الأصيل ، قمتُ بكتابة رسالة قصيرة تصف بإيجاز كل الأعراض التي بدت جليةً على (بيترز) وأشرت بحذر شديد إلى التجهم ، ونظرة الخوف اللتان اجتاحتاه على حين غرّة ثم أرسلتها إلى كل أطباء ولاية نيويورك الكبرى.

أجريتُ بعدها استبيان تساءلت فيه عما إذا كان الأطباء قد عالجوا أي مرضى يعانون من ذات الأعراض ، أو أعراض مماثلة ، و إذا كان الأمر كذلك فقد طلبتُ إرفاق التفاصيل ، الأسماء ، المهن ، والعناوين إن وجدت تحت ختم الثقة المهنية بالطبع.

لقد شعرتُ بالإطراء لأن سمعتي المهنية لاقت أصداءً جعلت كل من تلقى رسالتي يأخذها على محمل الجد ولم يعتقد أحدهم أن لي أغراضاً غير أخلاقية ، حيث تلقيتُ رداً من سبعة أطباء وزيارة شخصية من أحدهم أعطتني نوعاً من التحفظ الطبي الذي يؤكد أنه في غضون ستة أشهر قد لقي سبعة أشخاص حتفهم بشكل غريب كما هو حال (بيترز).

أدرجت الوفيات زمنياً على النحو الآتي:

25 آيار (روث بيلي) أعزب ، يبلغ من العمر خمسين عاماً من الأثرياء طيبي السمعة حيث كان يكرس حياته للأعمال الخيرية الخاصة بالأطفال.

20 حزيران شخص يدعى (باتريك ماكلين) عامل بناء ، زوج وأب لطفلين اثنين.

1 أغسطس (أنتيا جرين) طفلة تبلغ من العمر أحد عشر ربيعاً ، لأبوين متعلمين بظروف معتدلة.

15 أغسطس (ستيف ستانديش) ثلاثيني ، يملك زوجة وثلاثة أطفال.

30 أغسطس (جون مارشال) مصرفي ، يبلغ من العمر ستين عاماً ، مهتم برعاية الأطفال.

10 أيلول (فينياس ديموت) عامل في مدينة الملاهي ، لديه زوجة وطفل صغير.

12 تشرين الأول (هورتنس دارنلي) عمرها يقارب الثلاثين ، لا تمتهن أي مهنة.

كانت عناوين سكنهم مبعثرة على نطاق واسع في جميع أنحاء المدينة ، بإستثناء اثنين منهم.

احتوت الرسائل التي ضمّت حالة كل شخص منهم ، ملاحظات مهمة حول سرعة التصلّب بعد النوبة الأولية التي تحدث قبيل الموت بفترة وجيزة وأشارت خمسة من تلك المكاتيب إلى ظهور غامض لنفس التعابير الغريبة التي اكتسحت محيا (بيترز).

قرأتُ بعد ذلك ، الرسالة التي كتبها الطبيب المسؤول عن الأعزب (بيلي) والذي أشار فيها إلى أن عيني الأخير بقينا مفتوحتين حيث ظل يحدق بلا وجهة تُذكر وفشل في التركيز على محيطه ناهيك عن الرعب الشديد الذي يجتاح كل مسامة من وجهه حتى بدا و كأنه أرض مغتصبة ، يعتريها الخوف والوصب ولا فائدة ترجى من الفرار؛ لأنه ما أن يشرع بالهرب مما يعتريه حتى تلازمه نوبة غير معهودة من التصلب والصرامة كتلك التي تحدث للجثث الهامدة بعد أن يسلبها الموت الروح.

كتب الطبيب المسؤول عن عامل البناء (ماكلين) بإسهاب عن تعابير وجه المريض قبل أن يلقى حتفه

ولم يذكر أي شيء عن الظاهرة الغريبة التي تسبق الموت ، ثم أجزم بأنه لم يكن ما هو مشترك مع الانقباض العضلي الذي يُدرج تحت مسمى (وجه أبقراط) ، ولم يكن فمه ملتوياً بشكل طبيعي كما اعتدنا أن نلاحظه وأدرجناهُ تحت مسمى (ابتسامة الموت) ولم يكن هنالك ما يشير إلى تعرض المريض لأي شكل من أشكال العذاب بعد الموت بل على العكس ، أما ما يحدث قبيل إتيان المريض مصرعه فسأكتفي بقول أن هنالك تعابير تحمل خبثاً غير عادي تعتلي وجهه.

أما الطبيب المسؤول عن (ستانديش) فقد كتب تقريراً روتينياً عن حالة مريضه ، لكنه أضاف ملاحظة تنبئ عن صدور أصوات بغيضة من حلق المريض بعد وفاته بلحظات ، تساءلتُ عما إذا كانت تلك الأصوات ذاتها التي انبعثت من (بيترز)..؟

بعد هنيهة من الصمت والتساؤلات التي أخذت تدور وتقفز بين خلايا دماغي ، قرأتُ تقرير الطبيب المسؤول عن (مارشال) ، كنتُ أعرفه عز المعرفة فقد كان متغطرساً ، ذو رأي متزمت ، من النوع الذي يبدو مثالياً لمُترفي الحال من الأثرياء ، حيث كتب في رسالته تقريراً لا يخلو من عجب قال فيه:

«لا يمكن أن يكون هنالك سر وراء وفاة المريض ،

ومن المرجح أن يكون قد تعرض لجلطة في مكان ما من دماغه ولا أهمية تذكر لتعابير وجهه والتكشيرة التي اعتلته قبل أن توافيه المنية وكذا الحال بالنسبة للصرامة التي حدثت بعد الوفاة . فكما تعلم يا عزيزي — لويل — أنه من المسلم به في الطب الشرعي إثبات أي شيء من خلال ما يعرف بتصلّب الموت».

كنتُ أرغب بالرد على ما قاله الطبيب ذاك ، أنه عندما يكون هنالك شك في أي تشخيص ، تكون الجلطة هي السبب الأنسب والحل الأمثل لتغطية جهل الممارسين لشرف المهنة ، لكنها بالتأكيد لا تبرر تقاعسهم عن البحث والسعي وراء إيجاد السبب الحقيقي للوفاة.

كان التقرير الذي أعقبه بخصوص (ديموت) خلواً من أي تعليق ، بينما لم يكن الطبيب المسؤول عن الطفلة

(أنيتا) متحفظاً فقد كتب واصفاً حالها:

«كانت طفلة شديدة الجمال ، بدت وكأنها لا تقاسي أي مرض أو ألم لكنها باتت تنظر بجمود ونظرات ثاقبة دونما تغيير بل وأن الأمر كان أشبه أن يكون كابوس يقظة؛ لأنها بلا شك كانت واعية حتى داهمها الموت فيما لم يحدث المورفين أي تغيير في الأعراض ، ولم

يكن له أي تأثير على القلب أو عملية التنفس ، فيما بعد اختفت علامات الرعب مما أفسح المجال لمشاعر أخرى – أتردد في وصفها – بالظهور جليةً ، لكنني سأصفها لك بشكل شخصي إذا كنت ترغب بذلك».

لم أجرؤ على وضع هذه الملاحظة في استبياني بيد أن جميع الأطباء باستثناء طاقم مشفى (ستانديش) قد شاركوني تحفظي ، اتصلت بعدها بطبيب (أنيتا) الصغيرة هاتفياً ، كان منزعجاً بشدة وظل يكرر قوله المزعوم:

«كانت الطفلة طيبة ، وذات جمال آسر كالملاك ، وفجأة تحولت إلى شيطان».

لقد وعدتهُ أن أُبقيه على اطلاع بأي اكتشافات جديدة حيال الموضوع المريب الذي غزا المدينة على حين غرة وجعلنا نحن – معشر الأطباء – عاجزين عن إيجاد تفسير منطقي له ، وبعد وقت قصير من محادثتنا زارني الطبيب الشاب المسؤول عن (هورتنس دارنلي).

لم يقدم الطبيب (ص) – كما سأدعوه – أي أضافة للجانب الطبي بخلاف ما كنتُ أعرفه بالفعل ، لكن حديثه قادني للسير صوب الخط العملي الأول من نهج المشكلة ، حيث قال إن مكتبه

كان فـي المنـزل الـذي تقطـن فيـه (هورتنس دارنلي) و كان يعمل لوقت متأخر ، استدعته خادمة الأخيرة ذات يوم ، وهي فتاة جميلة ذات عينين ملونتين ، إلى شقتها في حوالي الساعة العاشرة صباحاً حيث وجد المريضة مستلقية على سريرها وقد صُدم على الفور بتعبير الرعب الذي يعتلي محياها والترهل الغريب في جسدها ، وصفها بأنها شقراء بعيون ارتشفت زُرقة البحر ، وصفاء السماء ، كانت تشبه الدمى إلى حد مخيف.

كان هنالك رجل في الشقة ، لقد تهرب في بادئ الأمر من ذكر اسمه قائلاً إنه مجرد صديق ، للوهلة الأولى اعتقد الطبيب (ص) أن المريضة قد تعرضت لبعض العنف إلا أن الفحص لم يكشف عن وجود إصابات أو كدمات ، أخبره — الصديق — إنهما كانا يتناولان طعام العشاء معاً عندما سقطت الآنسة (دارنلي) على الأرض دونما حراك كما لو أن كل عظامها أصبحت طرية فيما أكدت الخادمة قول الأخير.

لاحظ الطبيب (ص) وجود بقايا عشاء على المائدة وأكد الرجل و الخادمة أن (هورتنس) كانت في أفضل حالاتها المعنوية ونفى حدوث أي شجار ، بعد هنيهة ، أعترف الصديق على مضض أن حالة المريضة قد

ساءت منذ ما يقرب الثلاث ساعات وأنهم قد حاولوا جلبها بأنفسهم إلى المشفى لكنهم تراجعوا حين بدت الأعراض ذاتها التي اجتاحت (بيترز) تظهر عليها.

مع تقدم النوبة أصبحت الخادمة في حالة هيستيرية من الخوف، ثم فرت هاربة بينما بقي الصديق متماسكاً حتى النهاية رغم ارتجافه مرات عدة بسبب ظواهر ما بعد الموت.

عندما أعلن الطبيب أن القضية يجب أن تحال إلى الطب الشرعي، اختار الصديق أن يفصح عن اسمه، (جيمس مارتن)، وعبر عن رغبته في إجراء تشريح كامل للجثة، لقد كان صريحاً فيما يتعلق بأسباب إخفائه لهويته أول الأمر فقد كانت المرأة المتوفاة عشيقته وأوضح أن لديه ما يكفي من المتاعب كي لا يعلق موتها عليه.

بعد إجراء تشريح كامل للجثة، أوضحت التقارير عدم العثور على أي مرض، أو تسمم بعيداً عن مشكلة بسيطة في صمامات القلب، كانت (دارنلي) تتمتع بصحة جيدة، لذا أقر الطبيب الشرعي أن سبب الموت هو مشكلة في القلب، بيد أن الدكتور (ص) كان على يقين تام أن القلب لا علاقة له بموتها.

كان من الواضح أن الآنسة (دارنلي) قد ماتت

لنفس السبب الذي توفي لأجله أقرانها لكن ما لفت انتباهي أن شقتها كانت على مرمى حجر من العنوان الذي أعطاني إياه (ريكوري) باعتباره عنوان (بيترز).

كان من الممكن تصور وجود رابط بين حالتي الوفاة هاتين، لذا فقد عقدتُ العزم على الاتصال ب (ريكوري) لوضع جميع الأوراق على مرأى ومسمع منه، وطلب مساعدته لو أمكن.

استغرق التحقيق حوالي أسبوعين، خلال ذلك الوقت تعرفتُ جيداً على (ريكوري) فقد كان على درجة عالية من الذكاء، والدهاء، توالت زياراته لي في تلك الفترة وكان يصطحب معه الحارس ذو الشفاه الضيقة الذي كان يلازم نافذة المشفى في غرفة (بيترز)، حيث كان الحارس الشخصي الموثوق والأقرب ل (ريكوري)، ويبدو أنه مخلص بالكامل لرئيسه ذو الشعر الأبيض.

على أية حال، لم يكن (ريكوري) يذهب لأي مكان دون حارسه المدعو (ماكان)، تواصلتُ معه مراراً، وطلبتُ منه أن يلبي دعوتي لتناول العشاء معاً برفقة (برايل) في منزلي، وافق على الفور، حيث التقينا تلك الليلة في الساعة السابعة وأخبر (ريكوري) سائقه أن يأتي لأخذه عند العاشرة، جلسنا على الطاولة،

وتناولنا العشاء بهدوء ، بدا وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . بعدها أخبرتُ (ريكوري) بما يجول في ذهني مشيراً إلى الاستبيان الذي أجريته والذي يكشف عن وجود ثمان حالات مشابهة لحالة (بيترز) مؤكداً أن يطرد من رأسه أي فكرة تدور حول كونه السبب في موت (بيترز) خاصةً بعد ظهور تلك الكرات المشعة في عينات دمه.

بدت الراحة جليةً على وجه (ريكوري) وأجزمَ أن ما حدث كان بفعل ساحر ، نفيت ما قاله فوراً ، وأعقبتُ السحر لا يعدو كونه هراء وخرافات لعينة ، أردف على قولي بحرارة واضحة متسائلاً عما إذا كان بإمكانه مد يد العون ، أخبرته نريد أن نحلل تلك الحالات الثمان ، عندها أجرى (برايل) مداخلة وأجزم أن الثمانية المزعومين قد قتلوا.

الممرضة والترز و المَنون

لقد أعرب (برايل) عن الفكرة التي أخذت تستوطن مكامن عقلي مؤخراً وبلا أي دليل يُذكر ، بقدر ما أسعدني سماع دجى أفكاري يُتلى على مقربة من مسامعي ، فقد أزعجني الأمر مما جعلني أقول له ساخراً:

«أنت أفضل شأنٍ مني يا (شارلوك هولمز)».

احمرّ وجهه لكنه كررّ بعناد مُريب:

«لقد قُتلوا».

تمتم (ريكوري) هامساً بكلمات لها رابط وثيق بالسحر آنف الذكر ، ألا أنني لم أدرك ماهيتها حتى الآن ، حدقت فيه متسائلاً دونما كلمة ثم أردف:

«توقف عن الخوض في توافه الأمور ، ما هو دليلك على ما تزعم (برايل) ؟».

أجاب:

«لقد كنتَ بعيداً عن (بيترز) لما يقرب الساعتين ، بينما لازمتهُ مثل ظله منذ مجيئه وحتى رحيله إلى مثواه الأخير ، كان لدي شعور يراودني أثناء دراستي لحالته ، يُملي عليّ أن المشكلة برمّتها كانت في ذهنه حيث أنه

لم يكن يشكو من جسده ، أو دماغه الذي رفض العمل ، أو حتى أعصابه ، بيد أن إرادةً قد تحكمت في شتى وظائف جسده ولم تعِرها أية أهمية ، بل وركزت على قتله أيضاً».

أعقب (ريكوري) مستهزئاً:

«ما تهذي به الآن ليس قتلاً بل انتحار ، لقد شاهدتُ خلال حياتي بالفعل عدداً قليلاً يموتون لأنهم فقدوا إرادة الحياة».

قاطعه (برايل):

«لا أقصد ذلك ، لقد كانت جريمة قتل مباشرة».

أجاب باستغراب شديد:

«يا إلهي ، لقد صُعقت لما سمعت حقاً يا (برايل) ، لا تقل أنك تفترض مرور الثمانية جميعاً عبر الحياة بنفس الصورة ، ومن ثم يجعلون أنفسهم على استعداد للخروج منها رغماً عن إرادتهم ، لقد كان بينهم طفل صغير لم يكمل سنه الحادي عشر»!

قال (برايل) مُفسراً:

«لم أقل ذلك ، ما قصدته هو أن (بيترز) لم يكن يملك السيطرة على إرادته ، لقد كانت إرادة شخص آخر حيث استحوذت عليه كلياً مما قادته إلى مصرعه رغماً عنه».

غمغم (ريكوري) مجدداً بكلمات غير مفهومة، لكنني أستطيع الآن أن أُبدي احترامي الشديد ل (برايل) فقد كان رجلاً ذا حنكة جيدة بما يكفي لعدم تجاهل أي مقترح يتفوّه به.

سألتُ بحذر شديد:

«هل لديك أي فكرة عن كيفية تنفيذ جرائم القتل تلك؟ إذا كانت جرائم قتلٍ فعلاً».

أجاب (برايل):

«ليست لدي أدنى فكرة».

أجبتُ بوحشية:

«دعونا نفكر في نظرية القتل، لقد كانت لدى ريكوري خبرة في ذلك المجال أكثر منا جميعاً، لذا استمع جيداً وأنسَ أمر السحر والشعوذة. هنالك ثلاثة عوامل أساسية لأي جريمة قتل، ألا وهي الطريقة، الفرصة، والدافع. لنأخذها تِباعاً:

هنالك أولاً ثلاث طرقٍ يمكن لشخصٍ أن يُقتل خلالها بسبب السم، أو العدوى من خلال الفم، الجلد، أو الأنف — وهذا يشمل الغازات — وهنالك طريقتان أو ثلاث طرائق أخرى، فقد تعرض والد هاملت على سبيل المثال للتسمم من خلال الأذنين، على الرغم من أنني كنتُ دائماً أشك في ذلك، لذا يمكننا استبعاد

جميع الأساليب بإستثناء الفم ، والأنف ، والجلد ، هل كان هناك أي دليل على الجلد ، في أغشية القنوات التنفسية ، في الحلق ، في الأحشاء ، المعدة ، الدم ، الأعصاب ، الدماغ ، أو أي شيء من هذا القبيل؟».

قال مؤكداً:

«أنت تعلم على وجه اليقين خلوّه من جميع ما سبق».

أعقبتُ مسترسلاً:

«هذا صحيح تماماً ، لا يوجد أي دليل باستثناء الجسيمات المضيئة ، لذا فليس لدينا على الإطلاق أي دليل يمكن الأخذ به في الأساس الأول لحصول أي جريمة قتل ، ألا وهي الطريقة ، لنأخذ الأساس الثاني — الفرصة — حيث لدينا إلى الآن سيدة ، أعزب محترم ، عامل مصرفي ، ربة منزل ، بهلوان ، عامل في مدينة ملاهي وطفلة تبلغ من العمر أحد عشر عاماً.

بقدر ما يمكننا أن نقول ، لا أحد منهم باستثناء رجل السيرك ، بيترز ، والسيدة دارنلي ، لديهم أي شيء مشترك ، كيف يمكن لأي شخص ممن كانت لديه فرصة الاقتراب من بيترز وقتله ، أن تكون له ذات الفرصة لقتل روث بيلي — السيد الأول — في السجل الاجتماعي؟

بل كيف بإمكان من وجد طريقة للاتصال بالمصرفي

مارشال ، أن يقترب بنفس القدر من ستانديش ؟ هل تدرك الصعوبة ؟ أياً كان السبب في تلك الوفيات فلن يكون عرضياً ، أتوافقني الرأي؟».

أعترف:

«نعم ، جزئياً».

أردفتُ مُفكراً بصوتٍ عالٍ:

«كان من الجلي افتراض أنهم جميعاً قد قتلوا من قِبل شخص واحد ، هذا إذا كان جميعهم ضمن نطاق القاتل الافتراضي ، لكنهم لم يكونوا كذلك».

قاطعه (ريكوري) قائلاً:

«عذراً أيها الطبيب (لويل) ، افترض أن لهم مصالحاً مشتركة مما جعلهم في نطاق واحد».

أجبتهُ مستغرباً ذلك الافتراض:

«ما هي المصلحة المشتركة التي من المحتمل أن تجمع أفراداً متباينين للغاية ؟».

قال متهكماً:

«هنالك مصلحة مشتركة موضحة في هذه التقارير وفيما أخبرنا به ماكان أنهم الأطفال».

أومأ (برايل) برأسه متفقاً مع ما قاله (ريكوري) ، ثم أردف الأخير قائلاً:

«عند النظر في التقارير ، نجد أن السيد بيلي قد

كرست حياتها لرعاية الأطفال كما أن مارشال له ذات الاهتمام ، بينما كان لعامل البناء ، و العامل في مدينة الملاهي و السيدة دارنلي ، أبناء صُلب.

اعترضت على قوله من فوري:

«إذا كانت جرائم قتل فأنها من عمل يد شريرة واحدة ، من غير المعقول أن الثمانية كانوا مهتمين بطفل واحد أو مجموعة واحدة من الأطفال»

اتفق (برايل) معي فيما قلت ، وقال أن هناك احتمالاً وارداً يؤكد أنه من الممكن أن يكون جميعهم قد اهتموا بشيء واحد خاص وغريب جعلهم يعتقدون أنه سيسعد الأطفال ويمكننا الحصول على تقرير كهذا في مكان واحد فقط لو تمكنا من إيجاده فمن المؤكد حينها أن يخضع ذلك المكان للتحقيق.

قلت إن تلك الأقاويل تستحق النظر في أمرها بلا شك ومع ذلك فقد بدا لي أن فكرة المصلحة المشتركة تعمل بطريقتين ، فلربما كان لبيوت أولئك الذين لقوا حتفهم شيئاً من المصلحة المشتركة . فقد يكون القاتل على سبيل المثال سباك ، أو كهربائي ، أو عامل خدمة ، وما إلى ذلك.

هزّ (برايل) كتفه بينما لم ينطق (ريكوري) ببنت شفة وجلس يغور في دواخل نفسه ودجى أفكاره حتى

بدا و كأنه لا يسمع أياً من حديثنا ، بعد أن ساد الصمت لفينة من الزمن ، قاطعتُ خلوته قائلاً:

«من فضلك استمع لي يا ريكوري ، فقد وصلنا إلى مفترق طرق ، لم نجد طريقة واضحة للقتل وما زالت الفرصة مبهمة ، السؤال الآن ما هو الدافع الذي يبرر جريمة القتل إن وجدت؟ هل حدثت تلك الجرائم لدوافع الانتقام ، الكسب ، الحب ، الكراهية ، الغيرة ، أم الحماية الشخصية؟ لا يبدو لي أن أياً مما ذُكر مناسباً.

سأل (برايل) بغرابة:

«ماذا عن إرضاء الشهية للموت ، ألا تسمي ذلك دافعاً ؟».

أجبتُ:

«ألن تسمي مثل هكذا شخص مهووساً بالقتل ، أو أصابه رجس من الجنون ؟».

قال محاولاً تفسير وجهة نظره:

«خلوه من دوافع القتل لا يعني عدم ارتكابه ذلك الفعل المشين ، فقد يعتبر القاتل نفسه طبيعياً كما الموت ، حيث أنه لا يعتنق أي إيمان ، كنت تعتقد فيما سبق أن مجرى الأمور في أيادي ما يسمى بشكل غامض«مصير»؛ فهل تسمي القدر مهووسَ قتل ؟».

أعقبتُ متثاقلاً وأشرتُ الى أن المناقشة قد أخذت منحى ميتافيزيقي للغاية بالنسبة لعالِم بسيط مثلي ، حيث لا يمكنني طرح القضية على الشرطة لأنهم بالتأكيد سيسخرون مني وسيأسفون لانحطاط الفكر العلمي لذا أفضل عدم الاتصال بأي وكالة تحريات ، سأل ريكوري عما أريده أن يفعل ، أجبته:

«لديك حلقة اجتماعية واسعة ، أريدك أن تغربل كل حركة قام بها بيترز ودارنلي خلال الشهرين الماضيين».

ترددت لهنيهة ثم قلت:

«أريدك أن تجد ذلك المكان الذي كان محط جذبٍ لكل أولئك التعساء على الرغم من أن لي حدس يقول إنه ليس لديكم أي دليل حقيقي يمكن بناء شكوككم عليه إلا أنني أعترف على مضض بأنه من الممكن أن تكونوا على صواب».

قال ريكوري:

«أنت تحرز تقدماً أيها الطبيب لويل ، سوف لن يمر وقت طويل قبل أن تعترف بوجود السحر الذي أرمي إليه».

قلتُ إنني لا أستطيع إنكار أي شي في مثل هذا الوضع حتى وإن كان ساذجاً ، ضحك ريكوري وعمل

على نسخ المعلومات الأساسية من التقارير حين دقّت الساعة مشيرةً إلى حلول العاشرة وجاء (ماكان) ليقلّ السيد ريكوري ، اتفقنا أن يبدأ التحقيق من أخت (بيترز) التي كانت لا تعلم بموته حتى هذه اللحظة لأنها شديدة التعلق به وسيحزنها خبر موته بكل تأكيد ، عاد ريكوري أدراجه وبالكاد عدنا أنا وبرايل إلى مكتبي عندما رن جرس الهاتف ، أجاب برايل مباشرةً حيث رُسمت على وجهه علامات الصدمة وشرع يشتم و يسب ، واجتاحت رعشة شديدة يديه التي تحمل سماعة الهاتف وقال مؤكداً:

«سنأتي حالاً».

وضع سماعة الهاتف ببطء على الطاولة ، ثم التفت نحوي ووجهه يحمل ذات الرعشة ثم قال:

«أخشى أن الممرضة والترز قد أُصيبت !».

شعرتُ بصدمة كبرى ، فقد كانت الممرضة والترز مثالية للغاية ، بل وجميلة إلى حد لا يصدق ، نقية ، ذات شعر أسود مزرق ، وعينين كان لهما من نقاء السماء ولونها حصة الأسد ، تُسدل عليهما رموش طويلة مذهلة ، كان لها بشرة بيضاء جذابة بشكل فريد ، التزمتُ الصمت لدقيقة أو اثنتين ثم قلت:

«لا شك أننا نتعامل الآن مع بعض الأمراض

المُعدية ، لقد علمتُ أن والترز تنفق معظم أموالها على ابنة أختها الصغيرة وهي طفلة في سن الثامنة وهذا يؤكد افتراض ريكوري ، ومع ذلك أعتزم أنه من الضروري أخذ كل الاحتياطات اللازمة ضد مرضٍ معدٍ».

بحلول الوقت الذي ارتدينا فيه معاطفنا ، كانت سيارتي تنتظر خارجاً ، لقد كان المشفى على بعد شارعين من مكاننا الحالي لكني لم أرغب بإضاعة الوقت فأمرت بنقل الممرضة والترز إلى جناح منعزل يستخدم لمراقبة الأمراض المشبوهة ، عند فحصها وجدتُ نفس الارتخاء الذي لاحظته جلياً على بيترز ، بيد أنها لم تبدِ سوى قليل من الرعب ، فحصتُ جسدها بأكمله ولم أجد أي علامات باستثناء بقعة وردية على كفها الأيمن ، جعلني الفحص الدقيق أعتقد أن هذه لا تعدو كونها إصابة سطحية نتيجة الغضب أو الحرق الطفيف ، كانت حالتها موازية لحالة بيترز من جميع النواحي الأخرى.

أخبرتني الممرضة المناوبة أنها قد انهارت دون سابق إنذار بينما كانت ترتدي ملابسها للعودة إلى المنزل ، التفتُ إلى السرير الذي ترقد عليه والترز ولاحظت أن يديها كانت ترفرف ببطء وترتجف كما

لو أن حركتها كانت فعلاً ناتجاً عن محض إرادة ثم غاصت عينيها في الرعب ، يبدو أنها حاولت أن تنقل بعض الرسائل إلينا.

سألتُ الممرضات عما إذا كانت والترز قد قالت أي شيء لأي شخص عن إصابة كفها فأجابوا بالنفي ومع ذلك ، فقد قالوا بأنها شاركت الممرضة روبنز الشقة مع هارييت وديانا.

سألتُ عن هوية ديانا فأخبروني أنها ابنة أخت والترز الصغيرة.

كان الطبيب هوسكينز لا يزال مستمراً بأخذ عينات من الدم لفحصها ، طلبتُ منه التركيز على المسحات المجهرية وإخطاري على الفور في حال وجود ذات الكرات المضيئة.

صادف وجود (بارتانو) — وهو خبير بارز ومهم في أمراض الدم — و كذلك (سومرز) — أخصائي المخ — الذي كنت أثق فيه بشدة ، طلبتُ منهم المراقبة ولم أُفصح عن الحالات المشابهة السابقة.

اتصل بعدها الطبيب هوسكينز ليخبرني أنه وجد أحد تلك الجسيمات اللامعة فطلبت من الطبيبين الذهاب صوبه فوراً وإعطائي رأيهم بشأن الأمر.

عادوا بعد فترة وجيزة و علامات الانزعاج والريبة

باديةً على وجوههم وقالوا إن هوسكينز قد أخبرهم عن خلية بيضاء تحتوي على نواة فسفورية لكنهم لم يتمكنوا من رؤيتها بل ونصحني سومرز بجدية شديدة للإصرار على هوسكينز بأن يجري فحصاً للبصر، أدركتُ فوراً الحكمة في صمتي مرةً أخرى.

اتفق الجميع على أن تعابير وجه والترز تنبئ حتماً عن وجود علّة في الدماغ، لم يعتقد واحداً منهم أن هنالك دليل على وجود عدوى جرثومية، أو عقاقير، أو سموم. اتفقا على أنها حالة مثيرة للاهتمام وطلبوا مني إخطارهم بأي جديد ثم رحلوا.

عند حلول الساعة الرابعة فجراً، حدث تغيير في التعبير، فقد أبدت تعبيراً كريهاً بدا لي في أول الأمر أنه رجس من عمل الشيطان، فيما تباطأ عمل القلب بشكل ملحوظ.

بدأت جفونها ترتفع تارةً وتنخفض تارةً أخرى ببطء شديد، لقد بدت وكأنها ترسل إشارة ما..

همس برايل:

«إنها راحلة».

ركعت وسماعة الطبيب في أذني، كان قلبها قد شارف على الوقوف، لم يطل الأمر حتى توقف وذهبت إلى مثواها الأخير، لم يصدر أي صوت كريه

من شفتيها بيد أن جسدها قد تصلب فوراً ، لقد دمر الموت وجهها الجميل لكني كنتُ على يقين أن الموت قد اجتاح جسدها فقط ، لكنه لم يتمكن من إرادتها !.

السرُّ في سيارة (ريكوري)

عدت إلى المنزل مُضرجاً بالكآبة بصحبة برايل، كان من الصعب على ذهني أن يتقبل تسلسل الأحداث مذ أن بدأت وحتى النهاية، بل وما بعد النهاية على حدٍ سواء.

كان الأمر كما لو كنتُ أسير بشكل شبه دائم تحت ظل عالمٍ غريب، تتأرجح فيه أعصابي يميناً ويساراً دونما هِداية، شعرتُ أنني تحت مراقبة أشياء غير مرئية، تقف خارج الظل مترقبة وعلى أهبة الاستعداد.

إن ما قلته ما خلا من غرابة نسبةً لرجل علمٍ أرثوذكسي، لكن ما باليد حيلة.

ارتجف برايل بشكل مثير للشفقة لدرجة أنني قد تساءلت عمّا إذا كان هنالك أكثر من اهتمام مهني بينه وبين الفتاة الميتة، كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً عندما وصلنا إلى منزلي حيث أصررتُ أن يبقى برايل معي.

اتصلتُ بالمشفى حال وصولي لأعرف ما إذا سمع أحدهم شيئاً حيال الممرضة روبنز فأجابوا بالنفي، نمتُ بشكل سيء للغاية لبضع ساعات حتى اتصلَتْ بي

روبنز هاتفياً عند التاسعة مساءً ، كانت حزينة بشكل هستيري مما جعلني أطلب منها المجيء إلى مكتبي فوراً.

لم يطل الأمر حتى مجيئها فأستجوبها برايل ، صمتت للحظاتٍ ثم قالت:

«منذ حوالي ثلاثة أسابيع ، أحضرت (هارييت) دمية جميلة للطفلة (ديانا) ، كانت الطفلة مبتهجة جداً لحصولها عليها ، وحين سألتُ الأولى عن مكان حصولها على تلك الدمية أجابت: قد أشترتها من متجر صغير وسط المدينة وذكرت شيئاً حيال لقائها بأغرب امرأة مرّت على لحاظها هناك».

اعتراها الصمت مجدداً لهنيهة ثم أعقبت:

«عادت هارييت إلى المنزل منذ حوالي عشرة أيام بضمادة حول قدمها اليمنى ، وذكرت أنها كانت تحتسي الشاي مع المرأة الغريبة صاحبة متجر الدمى حين سُكب إبريق الشاي بأكمله فوق قدمها ، قامت المرأة على الفور بوضع مرهم للحروق ولفها بضمادة اعتلت البقعة الحمراء الناتجة عن الحرق ، لم يطل الأمر أكثر من ساعة حتى اختفى الألم مما أثار إعجاب هارييت فقد كانت قدمها متقرحة ومن المستحيل أن تشفى بهذه السرعة ، وعندما عادت إلى المنزل قامت

بنزع الضمادة وألقتها في الموقد ، الغريب في الأمر أن الضمادة أنتجت وميضاً أزرق اللون ، لم يكن يبدو أنها تحترق فحسب ثم تحولت إلى اللون الأبيض.

أثار ما حدث إعجابنا حيث أننا لم نرَ شفاءً بمثل هذه السرعة من قبل ، كانت لدى هارييت رغبة عارمة بتمزيق أثر الحرق وفرك ترياقه بشدّة ، بيد أنها قامت بتعقيمه باستخدام اليود.

هذا كان كل شيء أيها الطبيب لويل ، لم تخبرني عن مكان المرأة أو المتجر ، لا أعرف لم كان عليها أن تلقى حتفها ، سأجن حقاً ، لا أعرف... لا أعرف».

سأل برايل مجدداً فيما إذا كان الرقم 491 يعني شيئاً لروبينز أو يذكرها بعنوان ما ، فكرت قليلاً ثم هزت رأسها بالنفي ، قمتُ بإخبارها أن والترز قد فتحت وأغلقت عينيها عدة مرات ، من الجلي أنها كانت تنقل رسالة ما.

فكرت مرةً أخرى وبدأت تستخدم أصابعها ثم قالت إنها كانت تحاول تهجئة شيء ما ، كما لو كانت الأحرف الثلاثة الأولى من اسم ديانا ، لربما كانت تطلب منا رعاية الطفلة ، ولكنها بالتأكيد تعلم بأنني سأفعل لذا فأن لها قصداً آخر.

قمت باستدعاء ريكوري بعد رحيل روبنز بقليل ،

أخبرته بوفاة والترز فبانت عليه علامات الحزن، والريبة، ثم قمنا بأعمال التشريح الشاقة على النفس وكما حال بيترز، لم يكن هنالك سبب واضح لوفاة المسكينة.

وعند حلول الرابعة من صباح اليوم التالي، اتصل بي ريكوري هاتفياً، كان في صوته شغف مكبوت:

«هل ستكون في المنزل بين السادسة والتاسعة أيها الطبيب لويل؟».

أجبت:

«بالتأكيد، إذا كان ذلك مهماً، وعلى أية حال سأتحقق من جدول مواعيدي، هل اكتشفت أي جديد يا ريكوري؟»

أجاب متردداً:

«نعم، ربما».

أردف ريكوري:

«اذهب إلى حيث يجب أن تكون، أعتقد أننا سنجد الدمى».

أغلق الخط بعد قوله المزعوم، كان قد بدا وكأنه يتجنب أن أطرح عليه المزيد من الأسئلة مما جعلني أجلس غارقاً في أفكاري، لقد اشترت والترز دمية من مكان ما، تعرضت فيه للإصابة، بينما تعرضت

هاربيت لذات الإصابة التي كانت تقلقها بشدة ، بل وأنها عزت نوبة السلوك غير التقليدي الذي اجتاحها إلى تلك الإصابة والمرهم الذي خالت أنه سيشفيها.

أعتقد أن الأطفال هم المصلحة المشتركة الوحيدة لجميع من لقوا حتفهم كما هو حال هاربيت ، ومن المؤكد أن الاهتمام المشترك الكبير للأطفال هو الدمى ، ترى ما الذي أكتشفه ريكوري؟

اتصلتُ ببرايل فوراً لكن لم أستطع الوصول إليه ، لم أنتظر لحظةً واحدة حتى اتصلتُ بروبنز وطلبت منها إحضار الدمية ففعلت ، كانت الدمية جميلةً بشكل لا يخلو من ريبة بل كانت أقرب أن تدبّ فيها الروح ، بلباسٍ مطرزٍ بشكل رائع ، لقد بدا وكأنه زي شعبي لأحد البلدان بينما لم تكن تحمل أي علامة تمكنني من التعرف على صانعها أو بائعها ، تفحصتها بدقة ثم وضعتها في أحد الأدراج منتظراً بفارغ الصبر أن أسمع ما في جعبة ريكوري.

أيقظني صوت رنين الجرس في الساعة السابعة صباحاً والذي كان مستمراً دونما توقف ، فتحتُ باب مكتبي فكان الطارق (ماكان) ، علمتُ من الوهلة الأولى أن هنالك شيئاً خاطئاً يحدث فقد كان وجهه شاحباً تعتريه الصفرة وعينيه شاخصتين في ذهول ، قال

بشفتين متصلبتين:

«تعال إلى السيارة ، أعتقد أن سيدي قد مات».

صرخت وذهبت معه بأقصى سرعة ، فتح السائق باب السيارة فرأيتُ ريكوري ملقى في زاوية المقعد الخلفي ، تفحصته فلم أتوجس نبضه ، فتحت مقلتيه فكانت خلوةً من أي تعبير ولكن جسده ما يزال دافئاً ، أمرتهم بإحضاره إلى المكتب ففعلوا.

كشفتُ عن صدرِهِ وشرعتُ أفحص جسده المتيبس بسماعتي ، لم يكن هناك أي دليل على وجود نبض ، أو تنفس ، كان يبدو على ريكوري أنه ميتٌ تماماً ، قرأ مرافقاه حكمي دون أن أنطق ببنتِ شفة ، كان الذعر حليفهما ، ساد الصمت للحظات ثم سأل أحدهما بصوتٍ رتيب المستوى:

«هل يمكن أن يكون مسموماً»؟

جال في خاطري أنه من الممكن أن يكون قد قُتل مسموماً فعلاً ، لكني توجست ريبة مما إذا كان قد فارق الحياة ، وماذا عن المهمة التي اتصل بي بشأنها؟

لم يكن كمن سبقوه ، شعرتُ أن دماغي يتضخم شيئاً فشيئاً وخلتُ أنه سينفجر لا محالة.

سألت مساعده (ماكان) عن أول مرة تعرض فيها ريكوري لوعكة أو حالٍ غريب فأجاب بذات النبرة

الرتيبة:

«على بعد ستة شوارع من مكاننا هذا ، كان سيدي جالساً على مقربةٍ مني ، ثم ذكر يسوع كما لو أنه ارتعب من رؤية شيء ما رافعاً يديه نحو صدره ، متأوّهاً ، سألته عن خطبه فلم ينطق ببنت شفة ، بدا لي ميتاً فناديت (باول) لنحمله ونأتي به إلى هنا».

سكبتُ لهما بعض البراندي ليقيني أنهما بحاجته الآن ورميتُ ملاءة فوق ريكوري ثم طلبتُ من (ماكان) أن يخبرني بكل شيء دون أن يتخطّى أي تفصيلٍ فأكمل حديثهُ قائلاً:

«اعتاد أن يذهب سيدي إلى شقيقة بيترز عند الثانية ظهراً من كل يوم ، يبقى عندها لمدة ساعة ثم يعود أدراجه ، في اليوم المزعوم قام بإخبار (باول) أن يقلّه عند الرابعة والنصف إلى مكان صغير عند نهاية شارع

(باتيري بارك) وطلب من الأخير أن لا يتبعه إطلاقاً ، لم أطمئن لرغبته وأعربتُ عن قلقي حيال الأمر فقال لي بنبرة حادّة: (أنا أفعل ما أفعلهُ ، وأنت تفعل ما أقوله) ، فلم يكن لي ردّ سوى سمعاً وطاعة.

جلستُ أرقبهُ من بعيد فرأيتُ أنه قد دخل إلى متجرٍ صغيرٍ يحتوي على كثير من الدمى ثم خلتهُ أجرى

حديثاً مع امرأةٍ كبيرة السن لها سحنة غريبة ، ببشرةٍ بنية اللون وبضع شعرات على الشارب بالإضافة لعدّة شامات ، ألقيتُ نظرة خاطفةً على عينيها ، فوجدتهما سوداوين واسعتين ببريق مريب ، وبعد هنيهة اختفى الرئيس والسيدة من أمام ناظري.

لم تمر سوى بضع دقائق حتى خرج سيدي حاملاً شيئاً ما تحت سترته ، كان شيئاً كبيراً وبارزاً ، ثم أدركتُ أنها دمية بعد أن رأيتُ قدميها تتدلى من سترته ، توقف للحظة و أشعل سيجاراً ليطفئ نار غضبه ، حيث لم أره بذات الغضب والانفعال من قبل ، كان يتمتم محدثاً نفسه بالإيطالية ، قد ذكر شيئاً عن الساحرات والسحر لكني لم أدرك كنهه حتى الآن ، ركبنا السيارة بعدها ، ثم جلس هادئاً دونما حِراك ، هذا كل شيء أليس كذلك يا (باول)؟.

لم يبدِ الأخير إجابةً واكتفى بالتحديق بزميله بشيء من التوسل ، ثم قال بلهجة إيطالية شديدة الوضوح أن جميع ما قاله (ماكان) صحيحاً لكنه لم يرَ المتجر أو السيدة الموسومة.

نهضتُ متجهاً إلى جثة ريكوري ، كنتُ على وشك أن أرفع الملاءة حين لفت انتباهي شيء غريب ، كان عبارة عن بقعة دم صغيرة لا تعدو كونها بحجم بصمة

الإصبع ، كانت تعلو قلبه مباشرةً ، قمتُ بفحصه فوراً فاستطعتُ رؤية ثقب في صدر ريكوري ليس أكبر من ثقب إبرة تحت الجلد ، قمتُ بإدخال مسبار لفحصه حيث أدخلتهُ بعناية فائقة حتى لامس جدار القلب فوجدتُ أنه قد تم دفع بعض العينات الدقيقة للغاية والموجودة في إبرة من خلال صدر ريكوري مباشرةً نحو قلبه.

نظرتُ اليه بريبة ، لم يكن هنالك سبب يجعل مثل هذا الثقب الدقيق فتاكاً ، مالم يحتوي على عقارٍ سام.

لم أكن متأكداً من وفاة ريكوري بقدر يقيني من وجود حقيقة شريرة تعذر على (ماكان) شرحها ، سألتُ مرافقيه ما إذا كان أحد آخراً معهم في السيارة فأجابا بالنفي ، لم يكن هنالك سواهما والدمية ، أصدرتُ أمراً بالاتصال بالشرطة؛ لأن ريكوري قد تم طعنه فقاطعني صوت (ماكان) مخاطباً (باول):

«لقد قلتُ لك أن الدمية من فعلت ذلك يا باول!».

السرُّ في سيارة ريكوري (التكملة)

استنكرتُ قول (ماكان) المزعوم عن دور الدمية في ما آلَ إليه حال ريكوري بيد أنه بقي صامتاً واكتفى بإشعال سيجارة ، بينما جثا (باول) على ركبتيه بجانب جثة ريكوري وراح منغمساً بالصلوات والتضرّعات.

كان أمر التشكيك بسبب وفاة ريكوري قد أعاد ثقة (ماكان) بنفسه ، سحب نفساً طويلاً من سيجارته ثم قال:

«أنا أسعى لجعلك تصدّقني وتؤمن بما قلتُ سلفاً».

توجهّت خُطاي صوب الهاتف لأجري اتصالاتي اللازمة فهرع (ماكان) واقفاً أمامي مُسنداً ظهره إلى آلة موسيقية كنتُ أملكها في مكتبي ، و قال:

«انتظر لحظة أيها الطبيب ، لستُ جُرذاً دنيئاً لأسمح بطعن الرجل الذي وظفني لحمايته ، سأواظب على متابعة الأمر مهما كلفني الأمر».

أدركتُ خطورة الموقف الذي وضعني القدر فيه رغماً عني بعد أن أشعل (ماكان) سيجارة أخرى دون أن ينبس ببنتِ شفة ، ثم قام بوضع كل ما يملكان من أسلحة على طاولة مكتبي وطلب مني أن أحتفظ

بها ثم أردف:

«أبقِ الأسلحة تحت قبضتك ، إن تكاسلنا في عملنا أطلق علينا النار؛ كل مبغاي ألا تجري أي اتصال حتى تستمع لي بآذانٍ صاغية».

جلستُ أرقب الأسلحة وأتفحصها بعناية فائقة لأرى ما إذا كانت محشوة وجاهزة لإطلاق النار فوجدتها على أهبة الاستعداد ، أعقب (ماكان) بعد صمت لم يدم أكثر من جزء من الثانية:

«أريدك أن تأخذ ثلاثة أشياء رئيسية في الحسبان أيها الطبيب ، أولاً:

إن كنتُ متورطاً فيما حدث لسيدي كما تحسب ، فهل سأقوم بإعطائك أي دليلٍ يدينني كما فعلتُ حين وضعي لجميع الأدلّة أمام ناظريك؟ ثانياً:

لقد كنتُ جالساً إلى يمينه ، بينما كان مرتدياً معطفاً سميكاً ، أنى لي طعنه بشيء دقيقٍ للغاية كما وجدت دون أن يحدث الأمر نزاعاً؟ ثالثاً:

إذا كان باول متواطئاً معي ، وقمتُ أنا بطعن الرئيس ، أكان لنا جلبه إلى الشخص الوحيد الذي سيكشف فعلتنا النكراء؟ لقد رميتُ نفسي في النار من أجله عدة مرات ، أنى لي أن أطعنه أيها الطبيب قلّ لي بحق السماء !».

شعرتُ بحقيقة قوله من أعماقي، فقد سرت قشعريرة هزّت جسدي البائس بمجمله مع كل كلمة خرجت من بين شفتيه كما تخرج الروح من الجسد، لقد كان إيماني راسخاً بأن ما يقوله هو الحق، لكن ما أثار دهشتي هو اتهامه للدمية المزعومة، فإن عزو القتل إلى دمية كان كمن مسّه رجسٌ من الجنون، فطلبتُ منه إحضارها إلى هنا لكنه قال إنها لم تعد هناك، ابتسم ابتسامة خلت من رحمة، ثم زعم أن شيئاً ما في الخارج.

قلتُ في قرارة نفسي أن شيئاً غريباً يحدث خارج مكتبي عندما اقتحم باول المكان ثم قال بشيءٍ من التردد والخيفة:

«هناك شيء مريب في الخارج أيها الطبيب، قد يكون طيف قطة، أو طيف كلب مشرد، لا أعلم على وجه التحديد فقد رأيت وميضاً يتبع شكل ذلك الشيء العجيب».

لم أستطع الرد فقد دخل (ماكان) على عجلٍ وأجزم بأن الدمية قد خرجت من السيارة ولاحت ساقه ثم أخذت تدور حول السيارة.

قلتُ بسخرية:

«أنت تشير إلى أن تلك الدمية قادرة على الطعن

والهروب على حدٍ سواء؟»
احمر وجهه قليلاً لكنه أجاب بهدوء:
«أعلم أن ما أقوله لا يخلو من جنون ، لكني فقط أردتُ أن .....»
قاطعته متسائلاً:
«ماذا تريد مني أن أفعل يا ماكان؟».
حاول الأخير أن يشرح مبغاه جاهداً ، ثم طلب مني إثبات أي دليل على وجود علّة في قلب ريكوري تسببت في وفاته ، ومما زاد حيرتي أنه طلب مني إمهاله أسبوعاً واحداً ليثبت صحة كلامه ، لو لم يفعل سيصبح من حقي أن أقيم عليه القصاص ، لكنه أردف بأني لو فعلت فسأكون قد قتلت رجلين بريئين ثم أني لن أكتشف إطلاقاً السر الذي تسبب بقتل الرئيس.
تجمعت سحابة من الشك حول قناعاتي ببراءة الزوجين فقد بدا لي طلبه ساذجاً لو أبديتُ موافقتي ، فسيكون أمامهما أسبوعاً كاملاً للفرار ، وسيبدو الأمر بعد ذلك كما لو أنني مشارك في عملية القتل وكذا الحال لو أظهرتُ شكوكي الآن ، من الممكن أن يتم اتهامي بالعمالة وقتلي ، من يدري أنهما سلماني كل أسلحتهم فمن الوارد أن تكون لديهما أسلحة اخرى فيستخدمانها ضدي ، وإذا تم إلقاء القبض عليهما

فستبقى عليّ مهمّة جمع الأدلّة وتبرئة نفسي أمام القضاء.

لقد خطر لي أيضاً أن حركة تسليم الأسلحة لي كانت ذكية بشكل لا يصدق، كانت لفتة مدروسة لكسب ثقتي، رغبتُ في أن أشتت أفكاري التي باتت تلتهم لُباب عقلي، فمشيتُ نحو ريكوري وانحنيتُ فوقه، كان جسده بارداً بعض الشيء لكنه لم يكن بدرجة برودة الموت، فحصتهُ بدقة لأجد أن النبض عاد لصدره ولكنه كان بالكاد مسموعاً، إلهي ! لقد عاش ريكوري !

تدافعت الأفكار في رأسي بشكل سريع جداً، حيث أن عودة النبض لم تزل الخطر بل زادته، فإذا كان الزوجان قد طعناه فسيكون قادراً على التحدث معهم وكشفهم، وحين علمهم بأن خطتهم قد باءت بالفشل، سيضطرون لقتله مجدداً وقتلي أيضاً لأنني شاهد عيان، مددت يدي إلى جيبي لأخرج أحد الأسلحة ثم اتجهت نحوهما وقلتُ:

«ارفعا أيديكما، بسرعة !».

أومضت الدهشة ببريق غير عادي على وجه ماكان وتملك الذعر من باول، لكنهما استسلما لما قلت دون أدنى اعتراض، أعقبتُ:

«لستما بحاجة لمثل هذا الاتفاق الذكي، إن ريكوري

على قيد الحياة وسيخبرنا كل شيء حين يستعيد صحته».

تبادرت تلك الصراعات إلى ذهني مجدداً ، هل كانا ممثلين بارعين لتلك الدرجة أم أنهما مخلصان حقاً؟

لقد تصلب جسد ماكان النحيف وبدت علامات السعادة ترتسم على محياه ، بينما جثا صاحبه وأخذ يتلو صلوات الشكر دونما توقف . لقد أشعرني موقفهما الصادق بالخجل من نفسي ، سحبت السلاح بعيداً فجاءني صوت ماكان الأجش قائلاً:

«هل سيعيش سيدي؟».

أجبته:

«لديه فرصة كبيرة في أن يعيش ، لو لم يكن قد أُصيب بعدوى أو سمٍ فتّاك».

دخل برايل عند حين وذُهل لما رأى ، أخبرته بأني سأشرح له الأمر برمته لاحقاً ثم طلبت منه أن يأخذه إلى الملحق ويعنى به حتى عودتي.

اقترحت علاجاً فورياً ثم عدتُ بناظري صوب مساعديه اللذان كانا ينظران إليّ بفضول لم أعهده ، أعدتُ إليهما الأسلحة مما أثار التعجب في نفسيهما ، أردف ماكان:

«لا أعلم بمَ تأثرت أيها الطبيب ، لكن ما تفعله

يناسبني تماماً ما دمتُ ستنقذ الرئيس».

أجبت:

«لا شك أن هناك من يجب إخطاره بحالته ، سأترك الأمر برمته لك يا ماكان فكل ما أعرفه هو أنه كان في طريقه إليّ حين تعرض لنوبة قلبية جعلته على هذا الحال ، و أنا الآن في صدد علاجه ، أما اذا كان من المفترض أن يموت فذلك بحثٌ آخر».

أضاف ماكان:

«هنالك زوجان فقط ممن يتوجب عليك رؤيتهم ، سأقوم بإخطارهم ثم سأذهب إلى العجوز مالكة متجر الدمى وأنتزع الحقيقة من بين براثنها الشريرة».

قلت له بحزم:

«لا ، ليس بعد ، قم بمراقبة العجوز وتتبع خطاها أينما حلت أو ارتحلت دون أن تكون بتماس مباشر معها ثم أخبرني بكل المستجدات حتى يستفيق ريكوري ويخبرنا بحقيقة ما حدث هناك».

وافق على مضض ، ثم ذكرته بأن قصة الدمية التي سردها على مسامعي لن تكون مقنعة بالنسبة للشرطة وحذرته من أن يدخلهم بهذه القضية طالما أن ريكوري على قيد الحياة.

صعدت إلى الملحق الذي يجثم فيه ريكوري مريضاً

بعد رحيل مساعديه ، كان نبضه ضعيفاً لكنه مشجع بعض الشيء ، وتحسنت درجة حرارته على حدٍ سواء.

في وقت لاحق من تلك الليلة ، اتصل بي اثنان من السادة المهذبين ، استمعوا بتمعن شرحي لحالة ريكوري وسألوا فيما إذا كان بإمكانهم رؤيته ، فرأوه بالفعل وغادروا بعد فينة من الزمن بعد أن أكدوا لي أنهم سيدفعون لي أتعابي فلا داعي للقلق ، و أوصوني أن أستشير أفضل وأغلى الأطباء ، بدوري ، أكدت لهم أنني أعتقد أن لريكوري فرصة ممتازة للتعافي.

طلب السيدان ألا أسمح لأحد برؤية المريض سواهما.

لم أحظَ بنوم جيد تلك الليلة فقد ظلت أطياف الدمى تلاحقني وتهددني حتى أصبتُ بالإعياء.

تجربة غامضة للضابط (شيفلين)

لقد شهدت حالة ريكوري تحسناً ملحوظاً مع بزوغ الشمس وقدوم الصباح، لم يفُق من الغيبوبة العميقة إلا أن درجة حرارته كانت شبه طبيعية، كما أن عملية التنفس وضربات القلب كانتا مرضيتان تماماً.

تقاسمنا أنا وبرايل مراقبة ريكوري حتى حلول الظهيرة حين جاء أحد زواره ممن عادوه في الليلة السابقة وتلقى تقاريري عن حالة ريكوري المطمئنة بامتنان شديد.

ذهبتُ بعدها إلى فراشي لآخذ قسطاً من الراحة حين باغتتني فكرة مفادها أن ريكوري ربما يكون قد أعد بعض المذكرات بشأن ما نصبو إليه، لكنني ترددتُ حيال تفتيش جيوبه، لذا فقد اقترحت على زائري أنه قد يرغب في فحص أي أوراق في جعبة ريكوري، مضيفاً أننا كنا مهتمين معاً بمسألة معينة، وأنه كان في طريقه إلى هنا حين مكوثه على هذا الحال وأنه ربما كان يحمل بعض الملاحظات التي تهمني.

وافق زائري فأرسلتُ في طلب المعطف والرداء الخاص به، قمنا بتفتيشهما جيداً ووجدنا بعض

الأوراق ، لكن لم يكن أياً منهما يتعلق بقضيتنا ، ومع ذلك ، فقد كان في جيب صدر معطفه شيئاً مثيراً للفضول ، حيث وجدتُ قطعة من الحبل الرقيق طوله حوالي ثماني بوصات والتي تم ربط تسع عقد فيها ، متباعدة على نحو غير منتظم.

تبادلنا أنا وزائري نظرات الحيرة والتساؤل عما رأت لحاظنا تواً ، ثم تذكرت خرافات ريكوري التي كان يؤمن بها بشأن السحر والشعوذة وعكست أن الحبل المعقود ربما كان تعويذة شريرة أو سحراً من نوع ما ، أعدتها في جيب المعطف والحيرة قد أخذت مني منحىً غير ذي هواد.

عندما بقيتُ بمفردي بعد رواح الجميع ، أخرجت الحبل وقمت بتفحصه مرة أخرى بدقة أكبر ، لقد كان الحبل مصنوعاً من شعر بشري مضفور بإحكام ، له لون رمادي شاحب ، كان يبدو أنه شعر امرأة بلا أدنى شك.

كانت كل عقدة مرتبطة بشكل مختلف ، أظنه أكثر تعقيداً وتماسكاً بسبب المسافات غير المنتظمة بين عقدةٍ وأخرى ، وحينما شرعتُ أفسر مثولها بهذا الشكل أمام ناظري ، اجتاحني ذات الشعور الذي ينتج حين الوقوف أمام بابٍ موصد أحتاج فتحه بأي طريقة.

لم أعد الحبل إلى جيب المعطف بل رميته في درج المكتب مع الدمية التي أحضرتها الممرضة روبينز.

أتصل بي ماكان هاتفياً بعد الساعة الثالثة بقليل ، كنت مسروراً لسماع صوته حيث أعادت روايته لما حدث في سيارة ريكوري كل شكوكي وبدأت فوراً بتخيل موقفي الذي لا أحسد عليه في حال اختفاء ماكان ، بيد أنه أزاح قلقي بقوله:

«اعتقدت أنني سأذهب إلى حيث لا بشر ولا دواب ، أليس كذلك أيها الطبيب لويل؟ لا يمكنك إبعادي أبداً ، انتظر حتى ترى ما حصلتُ عليه».

انتظرتُ وصوله بفارغ الصبر ، حين قدومه كان يصحبهُ رجل قوي البنية أحمر الوجنتين يحمل حقيبة كبيرة ، تعرفت عليه في بادئ الأمر كونه ضابط ألتقيه بين الفينة والأخرى حين مروري بالطرقات برغم أنني لم أره بزيه العسكري مسبقاً ، طلبتُ من كليهما الجلوس فأمتثل الضيف لقولي وجلس على حافة الكرسي ممسكاً بحقيبة الملابس بحذر شديد ، نظرتُ إلى ماكان نظرة استفسار فلوّح الأخير بيده مشيراً إلى الضيف معرفاً إياه ، الضابط (شيفلين) ، فأردف ضيفنا بشجنٍ قائلاً:

«إن لم أكن أعرف الدكتور لويل ، فلم يكن هناك

شيئاً يقودني إلى هنا مطلقاً . بيد أن لدي عقلاً راجحاً وليس كيس بطاطا».

أعقب بصوت عالٍ بعض الشيء وانفعالٍ ملحوظ:

«لقد رأيتُ ذلك بأم عيني ، أقسم لك أنني لست سكراناً أو بي ضربٌ من الجنون».

استمعت إليه بذهولٍ غير مسبوق وطمأنته بأني أريد تصديقه حقاً بغض النظر عن السبب.

رمقني بنظرة خاطفة فوجدتُ أنه مهما كان السبب وراء إحضاره للضابط شيفلين ، فهو لم يحدثه عمّا حدث مع ريكوري ، وبعد لحظة من الصمت وتبادل النظرات قال ماكان:

«كما ترى أيها الطبيب ، عندما سبق وأخبرتك عن قيام تلك الدمية بالقفز من السيارة ، ظننتَ أني معتوه أو أنها أحد الدمى الميكانيكية المحسنّة ، وحتى لو كان الأمر كذلك فيجب أن تنفد طاقتها في وقتٍ ما.

رمش شيفلين بعينيه وأمسك حقيبته بحذر بينما أخذ يتمتم بكلماتٍ غير ذات معنىً ، وصوت متذبذب الإيقاع ، فتارةً يكون كمن يريد الشروع في شجار وتارةً أخرى يهمس فلا نستطيع فهمه.

كانت الساعة حينها قد شارفت على الواحدة ظهراً بينما كنتُ يائساً كمن يبحث عن قطرة ماء في صحراءٍ

قاحلة ، جلستُ صامتاً أرقبُ السيد شيفلين الذي كان يترنح كالذي شرب خمراً حتى السُكر ، فأومأ برأسه نحوي وقال إنني مخطئ في اعتقادي المزعوم وأنه لم يكن مخموراً على الإطلاق بيد أنه لا يزال يرفع سرواله مراراً و تكراراً و يتخبط على مقعده ، بينما لاحظت قطرات دم تسيل من أسفل ساقيه ، و التي بدت و كأنها ناتجة عن ثقوب صغيرة ، لنقل أنها ثقوب دبوس دقيقةً جداً ، واستمر الأخير يرمق المكان بنظراتٍ يشوبها الشك والريبة.

قلتُ مستنفراً:

«من الذي فعل ذلك بحق الجحيم؟».

أجاب:

«الدمية من فعلت ذلك».

سرت قشعريرة في جسدي ، وتوجهت بنظري صوب ماكان الذي رمقني بنظرةٍ تحذرني من الاستهزاء بما يقول ضيفنا ، ثم أكد الأخير قائلاً إن الدمية حقاً من فعلت ذلك ، فأبديتُ ترحيبي بما قال مصدقاً إياه ، ثم طلبت منه أن يخبرنا باسم الدمية فقال:

«إنها على الأغلب دمية شقراء ، أراهن على ذلك فقد رأيتها في أحد المتاحف الشعبية ، كما أن السمراوات لا يرتدين قبعة ، لقد كانت هذه الدمية بالقرب مني

حين شعرتُ بوخزٍ شديد في ربلة ساقي كما لو أنني قد طُعنت ، وحين رأيتها كان الأمر قد بدا لي وكأنها تحمل دبوساً جاهزاً لوخزي الآن وفي مراتٍ أخرى».

أجبتهُ محاولاً إبعاد سريرتي عن تصديق ما قال: «من المحتمل أن يكون ما رأيتهُ قزماً».

نفى ما قلتُ دون أدنى تفكير وقال إن الدمية أخذت تقفز وتتراقص حوله بشكل جعل الدم يجمد في عروقه ، وأخذتْ توخزهُ بدبوسٍ بارتفاع قدمين مراراً كلما قفزت ، بينما بقي الأخير كالمشلول دونما حراك.

بعد أن ساد الصمت ، وتبادل نظرات الحيرة ، طلب ضيفنا سيارة أجرة ، وحين وصولها شرع شيفلين بالخروج ثم وعلى حين غرّة انزلق كيسه وبانت منه دمية ، أو بقايا دمية فدهستها سيارة الأجرة مما جعلها تفقد إحدى ساقيها بينما بقيت الساق الأخرى معلقة بخيط رقيق ، تمزقت ثيابها وتلطخت بأوساخ الطريق ، لقد كانت دمية بكل تأكيد لكن مظهرها أوحى بأنها قزم مشوه قادم من الجحيم بطريقة خارقة بينما تدلّى رأسها إثر الحادث.

قام ماكان برفع رأس الدمية وحدق فيها طويلاً ، كان لها عينان زرقاوان بوهج غريب كذاك الوهج

الشيطاني الذي بدا على وجه بيترز حين سلبه الموت نبض الحياة.

دمية بيترز

بينما كان ماكان يحدق في الدمية ، جلستُ وشيفلين نتبادل نظراتٍ خاوية لا تفسير لها ، قاطع الأخير تأملنا قائلاً:

«كأنها شيءٌ من الجحيم ، أليس كذلك أيها الطبيب لويل؟ لقد أخبرتكم أن لها دماغاً كما نحن».

كانت الدمية ذات محياً أحمر ، مع سحنةٍ حاقدة لا تخلو من غرابة ، لذا فلم يفاجئني سماع قضية الضحك الشيطاني الصادر عن فمها ، تابع شيفلين حديثه:

«أعتقد أن هنالك أكثر مما تراه العين المجردة يكمن خلف هذه الدمية ، أتطلع حقاً لمعرفة الأمر برمّته».

التقط الدمية وحدق فيها للحظاتٍ ثم رماها على سطح الكتب وتمتم بعبارةٍ لم أفهم مغزاها ، حيث قال إن

(السارق هنا هو ذاتهُ الرقيب) ، جلس مغمضاً عينيه كمن أضاع الأمل في طريقٍ بلا هدىً أو دليل.

أخذت الحيرة منّا مأخذاً ومرّت ليالٍ لم نستطع تجاوزها إلاّ بشقّ الأنفس ، وذات يوم قابلتُ ماكان

وأخبرته أني قد قدمتُ إليه بطريقة تعذّر عليّ فهمها ، وسألته إنْ كان يرغب أن أتحدث مع الشرطة بشأن ما حدث مؤخراً ، فأجاب دونما اهتمام:

«عمّ تريد إخبارهم؟».

أجبت:

«سأخبرهم أنك والضابط شيفلين على حق ، وأنني قد رأيتُ الدمية تقفز وتجري كما فعلتما ، هل لديك أيةُ نجوى عن ردّ فعلهم آنذاك؟».

أردف:

«سيعتقدون أن بك طيفاً من الجنون كما نحن ، وإذا وشيتَ بي فسيرسلونني إلى المشفى بكل تأكيد».

كان شيفلين واقفاً دون أن ينبس ببنت شفة ، حيث اعتقدنا أنه غير موجود حتى تنهّد بشدة وسأل بعصبية عن رأيي بما قاله ماكان فأجبتهُ بحذر:

«لا أستطيع أن أجزم القول ، لكنني أعتقد أن كلباً أو قطة قد مرت بمحاذاة السيارة حين وقوع الحادث ، وكان تركيزكم موجهاً صوب الدمية فاعتقدتم أن الدمية هي من تحركت وقفزت ......».

قاطعني بحركة من يده ثم قال:

«حسناً هذا يكفي ، سأترك الدمية لك لتدفع ثمن هذا التشخيص».

التقطت الدمية ووضعتها على طاولتي وجلستُ أرمق وجهها الخبيث الصغير بدقّة، قمتُ بإخراج دمية والترز لسببٍ أجهلهُ ووضعتها بجانب الأخرى، ثم أخرجت الحبل ذي العقد ووضعته بينهما، بينما كان ماكان واقفاً يرقب المشهد في صمت، قام بإطلاق صفير حين رأى الحبل وسألني عن مكان حصولي عليه.

أخبرته أني وجدته في جيب سترة ريكوري فأطلق صفيراً مرة أخرى مشيراً إلى الحبل ثم قال:

«أنا متأكد أن الرئيس لم يكن يعلم بوجودها، أتساءل من الذي دسّه في سترته».

سألتهُ ما الذي يتحدث عنه باستغراب شديد فأعقب موضحاً:

«يطلقون عليه في المكسيك (سلّم الساحرة)، إنها تعويذة دنيئة، فحين يمسسك هذا الحبل يصبح للساحرة الحق في أن تملك السلطة عليك».

انحنى على الحبل مراقباً بحذر شديد ثم تابع:

«نعم، هذا سلّم الساحرة، هذه العقد التسعة لشعر امرأة والتي وجدت في جيب الرئيس، يا إلهي!».

لم ألحظ أي محاولةٍ من ماكان في أن يمسك الحبل، فطلبتُ منه أن يحمله ولقي نظرةً عن كثب فرفض بشكلٍ مطلق ونوّه بأنها تعويذة تحمل من الشر

والسحر الأسود ما يسلب الأرواح.

كنتُ أستشيط غضباً كلما تزايد ضباب الخرافات التي أخذت تنهال علينا كوابلٍ من شر ، تجمعت غيومه أكثر من أي وقت مضى والآن فقد طفح الكيل ، نظرت إلى ماكان وقلت بغضب:

«هل تحاول ممازحتي؟ إنني أجد نفسي وجهاً لوجه مع موجة غضب جديدة في كل مرة أراك فيها ، إن ما تقوله لا يمت للمنطق بصلة ، قلتَ أن الدمية كانت في سيارتك أول الأمر والآن تتحدث عن سلم الساحرة ، ما الذي ترمي إليه على وجه التحديد؟».

نظر إلي وقد ضاقت عيناه وقال:

«إن كل مبغاي هو رؤية الرئيس واقفاً على قدميه بصحة جيدة».

أعقبت:

«لكنني أذكر أنك كنت بجوار ريكوري في السيارة عندما طُعن ، ولا يسعني إلا أن أتساءل كيف أكتشف شيفلين الأمر بهذه السرعة؟».

سألني باستغراب:

«ما معنى قولك أيها الطبيب لويل؟».

أجبته موضحاً:

«المعنى أن هنالك حلقةً مفقودة ، فقد اختفى

حليفك على حين غفلة بينما يمكن أن يكون الجزء الذي أثار إعجاب شيفلين لا يعدو كونه جزءاً ذكياً من التمثيل ، وأن الدمية التي في الشارع والسيارة المسرعة بشكل مناسب ما هي إلا مناورة مخططة بعناية لتحقيق النتيجة الدقيقة التي حققتها الآن ، وعلى أية حال ، ليس لدي سوى كلمتك وكلمة السائق التي تزعم أن الدمية لم تكن داخل العربة بل قفزت خارجها....»

توقفت عن الكلام لبرهة حين أدركت أني كنت فقط أنفس عن مزاجي السيء وحيرتي التي ملأت تكنات عقلي ، تابع مجيباً على قولي:

«من الجيد أن تعلم مدى اعتزازي بك أيها الطبيب ، ولكن أريدك أن تعلم أني على درجة عليا من الولاء للرئيس ، والأفضل من ذلك كله أنك الوحيد الذي يمكنك إنقاذه ، هذا كل ما يمكنني قوله حيال الأمر».

أبديتُ اعتذاري لما قلته أمام ماكان ، فتساءل عمّا يكون دافعهُ في ذلك؟

أجبتُ:

«ريكوري لديه أعداءً ذوي جأشٍ فذ ، ولديه أيضاً أصدقاء مخلصين ، لذا سيكون خبر القضاء عليه خبراً عظيماً نسبةً لأعدائه ، وان حمله لطبيب ذا سمعة طيبة ونزاهة ، لا يؤمن سوى بالعلم ، سيسهل إعطاءه

شهادة وفاة دون النظر لأسباب ما ورائية ، للحفاظ على الكبرياء المهني وأنا من هذا النوع من الأطباء يا ماكان».

خفّ التوتر الذي اعتلى وجه ماكان ثم أخذ دمية بيترز بين يديه وأخذ يتفحصها بعناية ، بينما ذهبت صوب الهاتف لأطمئن على وضع ريكوري ، أوقفني الأخير دون أن يقول شيئاً بل اكتفى بإعطائي الدمية مشيراً إلى ياقة معطفها ، مررت أصابعي على شيء بدا وكأنه رأس دبوس كبير ، إنه مثل رأس خنجر مدبب سُحب من غمده ووضع في معطف الدمية ، كان بطول تسع بوصات ، عرفت على الفور أنني أنظر إلى الآلة التي اخترقت قلب ريكوري ، قمتُ بوضعها تحت المجهر فرأيت أخاديداً صغيرة تعتليها بقع ، كانت بقع دماء بالتأكيد لكنني كنتُ مصرّاً على اختبارها؛ لأنه سيكون دليلاً قاطعاً على شيءٍ لا يصدق ، و الذي ينص على أن يد دمية استخدمت هذا الشيء المميت في محاولة قتل حقيقية.

شرعتُ أدرس وضع الدمية بشكلٍ أكثر جدية حيث أنها لم تكن مصنوعةً من الخشب كما الأخرى ، بل كانت مصنوعةً من مادة غريبة تحتوي على الشمع ، جردتها من الملابس حيث كان الجزء التالف من الدمية

مثالياً للتشريح ، رأيتُ أن لها شعراً بشرياً ، كان الشعر مزروعاً بعناية في فروة الرأس ، العينان عبارة عن بلورات زرقاء من نوع ما ، بينما كانت الملابس مشابهة لملابس دمية (ديانا) ، ثم لاحظت أن أرجل الدمية قد تم تشكليها على إطار سلكي بدلاً من الخيوط ، مشيتُ متوجهاً إلى خزانتي وأخذتُ منشاراً جراحياً وسكاكين.

كان (ماكان) يرقب حركتي فأوقفني قائلاً:

«هل ستقطع هذا الشيء أيها الطبيب؟»

أومأتُ إيجاباً ، مدّ يده في جيبه وأخرج سكين صيدٍ من النوع الثقيل وقبل أن أتمكن من منعه ، كان قد أنزل نصلها مثل الفأس عبر عنق الدمية المزعومة وقطع رأسها فأنقطع السلك وتدحرج الرأس على المنضدة حتى استقر فوق الحبل الذي أسماه ماكان (سلّم الساحرة) ، بدأ الرأس يلتوي وينظر إلينا بينما توهجت العينان باللون الأحمر.

شرعتُ بتشريح جسد الدمية المقطوع ووجدتُ أنه مرتكز على إطار سلكي كما كنتُ أظن ، وعندما قطعت مادة التغليف وجدتُ أن الإطار السلكي الذي تم بناء جسد الدمية عليه كان أشبه بالهيكل العظمي البشري بدقةٍ مذهلة دون وجود مفاصل حقيقة ، حيث كانت يداها وأرجلها مرنة تماماً.

نظرتُ إلى الرأس المقطوع الذي كان ماكان ينحني فوقه محدقاً في عينيه ، كان متوترٌ كما لو كان يحاول جاهداً أن يشيح بناظريه عن رأس الدمية بينما التف الحبل ذي العقد حول رأس الدمية بشكل غريب كما لو كان أفعى صغيرة.

كان الشر ركيزةٌ أساسية في النظرات الصادرة عن تلك البلورات الزرقاء بينما استمر ماكان بالانجذاب نحو الرأس المقطوع خارج إرادته ، وضعت ذراعي تحت ذقنه محاولاً سحبه نحوي ، أكاد أقسم حينها أن رأس الدمية المقطوع قد أخذ ينظر إليّ وشفتيه تتلوى!

ترنح ماكان وحدّق بي للحظةٍ ثم قفز إلى الطاولة وحمل رأس الدمية وحطمها على الأرض ، وأنزل كعب قدمه وانهال عليها ضرباً كمن يدهس حشرةً تحت قدميه ، بدا الرأس حينها خلوّاً من أي سحنةٍ بشرية بينما بقي الحبل ملفوفاً حوله.

أشعل ماكان سيجارة وحاول أن يلتقط أنفاسه جاهداً ، ثم رمى عود الثقاب مباشرةً على رأس الدمية ، تبع ذلك على نحوٍ مثير للقلق صوت نحيب مرير ، ووميض لامع ، ولم يتبقَ في مكان الرأس المسحوق سوى بقعة متفحمة بشكل غير منتظم على الخشب المصقول ، وبدت البلورات الزرقاء بلا لمعان واسودت

بدورها كما الرأس واختفى الحبل المعقود كما اختفى جسد الدمية تاركاً سائلاً أسود شمعي يثير الاشمئزاز ، رنّ هاتف المكتب في تلك اللحظة فأجبت مسرعاً ، لقد أخبروني أن ريكوري قد استفاق من الغيبوبة!

أمسك ماكان كتفي ثم ابتعد خطوةً ، لقد بدا غير مصدقاً واعتلت الفرحة والدهشة محياه ، وهمس قائلاً:

«لقد حررته حين أحرقت تلك العقد اللعينة بغير قصد! يجب أن نراقب خطواتنا من الآن فصاعداً ، إلهي!»..

مذكّرات الممرضة والترز

قمتُ باصطحاب ماكان معي إلى حيث يمكث ريكوري لأنني شعرتُ أن المواجهة مع رئيسه ستكون الاختبار الأسمى ، وستنهي بطريقةٍ أو بأخرى كل شكوكي حيال ما يتعلق بصدقه.

لقد أدركتُ الآن أنه من الممكن أن تكون كل الأحداث الغريبة التي حدثت آنفاً والتي رويتها للتو جزءاً لا يتجزأ من الخداع المُتقن الذي كنت قد اتهمتُ ماكان به ، فقد راودتني نجوى مفادها أن قطع رأس الدمية ما هي إلاّ حركة درامية مصممة بعناية لإبهار مخيلتي حيث أنه أول من لفت انتباهي إلى السمعة الشريرة التي انتشرت في المكسيك حول الحبل المعقود ، و كان هو ذاته من وجد الدبوس ، وافترضت أن قطعه لرأس الدمية وإلقائه عود ثقاب ما هو إلاّ إجراء محسوب يهدف إلى إتلاف الأدلّة ، ومع ذلك فلم أكن أثق بردود أفعالي حيث كان من الصعب أن يُنسب الفضل إلى ماكان في كونه ممثلاً بارعاً للغاية ، ورساماً بارعاً للغاية ، لكنه كان يمكن أن يتبع إرشادات عقل آخر قادر على حياكة مثل هذه التفاصيل الدقيقة.

كنت آمل أن يجتاز ماكان الاختبار ، لكن الامتحان وُسِم بالفشل بسبب ما آل إليه وضع ريكوري ، لقد كان الأخير واعياً تماماً وربما كان عقله يقظاً ، وعاقلاً كما اعتاد أن يكون ، لكن مستشعراته الحسية مازالت معطلة حيث تم تحرير عقله لا جسده وبات مشلولاً مما منع أي حركات عضلية بإستثناء ردود الفعل اللاواعية الضرورية لاستمرار الحياة.

لم يستطع ريكوري الكلام بينما نظر إليّ بنظرةٍ تخلو من أي تعبير ، ووجهٍ باردٍ بلا أَمَارَاتٌ ، ونظر إلى ماكان بذات الطريقة مما جعل وضعي لماكان تحت الاختبار أمراً يستحيل فعله.

همس ماكان:

«هل يستطيع سماعنا؟».

أجبته:

«أعتقد ذلك ، لكنه لا يملك أي وسيلة لإخبارنا».

ركع الأخير بجانب السرير وضم كفّ ريكوري بين كفيه وقال بوضوح:

«كل شيء على ما يرام أيها الرئيس ، نحن نقوم بعملنا على أتم وجه».

لم يكن كلامه أو سلوكه يدل على أنه مذنب ، ولكني أخبرته بعدها أن ريكوري لا يستطيع الإجابة ولا يجب

أن نرهقه ثم قلتُ لريكوري:

«أنت تتحسن بشكل رائع، لقد تعرضت لصدمة شديدة وأنا أعلم سبب مكوثك على هذا النحو لمدة يوم أو بعض يوم، هذا أفضل من أن تكون قادراً على الحِراك، لا تقلق وحاول ألّا تفكر بشيء غير سار، فقط دع عقلك يسترخي وسأعطيك مهدئاً خفيفاً ليساعدك على النوم فلا تقاومه، واسمح للوسن أن يعتريك ثم نم بهدوء».

أعطيته حقنة مهدئة تحت الجلد وشاهدتُ بارتياح تأثيرها السريع عليه ثم عدتُ ابحث الأمر مع ماكان وجلستُ أفكر في الأمر بشكل جديّ.

بات أمر تعافي ريكوري من قبضة الشلل غير معلوم، قد يستيقظ في غضون ساعة أو قد يحتجزه لعدة أيام، في هذه الأثناء كان عليّ التأكد من ثلاثة أمور: أولها أن أعلم إحداثيات واضحة عن نتائج مراقبة ماكان لمتجر الدمى، حيث كنت قد عقدت العزم على أن آخذ ما رواه لي الأخير استناداً إلى قيمته الظاهرية، ثانياً أن أعرف كل صغيرةٍ وكبيرة بشأن المرأتين اللتين تقطنان متجر الدمى المزعوم، وثالثاً السبب الذي جعل ريكوري يذهب إلى هناك.

توجهت بما يدور في رأسي إلى ماكان قائلاً:

«هل رتبت لإبقاء متجر الدمى تحت المراقبة كما اتفقنا مسبقاً؟

أجاب:

«لا يمكن للبراغيث أن تمرّ من هناك دون أن يتم رصدها، حيث قام رجالنا بتطويق المكان، وتشير الإحداثيات الأولية إلى أن هناك فتاة بيضاء البشرة تدخل إلى المتجر بعد الثانية عشر ظهراً، فيسمع رجالنا صوت صرير صادر من الجزء الخلفي للمتجر ثم تنطفئ الأضواء.

أود القول أيضاً أن تلك الفتاة قد قدمت إلى المتجر هذا الصباح ثم تبعتها تلك السيدة العجوز التي تطلق على نفسها اسم السيدة مانديليب والتي تكون خالة الفتاة الشابة.

يبدو أنها مترفة الحال، حيث أنها لا تخرج مطلقاً بل تكِل أعمال التسوق إلى الفتاة الشابة، كما أن ليس لها أي علاقة بالجيران ما خلا مجموعة من الزبائن المميزين من ذوي الثراء الفاحش، كما يبدو أنها تقوم بنوعين من التجارة، أحدهما يتمثل بتجارة الدمى العادية والآخر يتمثل بتجارة الدمى الخاصة.

لم يشعر الجيران بالرضا عن وجود تلك العجوز حيث يعتقد بعضهم أنها تتاجر بالمنشطات والعقاقير

المخدرة».

لفت كلام ماكان نظري إلى شيء بالغ الأهمية، فمن المحتمل أنه يقصد العانس بيلي والمصرفي مارشال بقوله (زبائن فاحشي الثراء)، بينما خُصصت الدمى العادية لأشخاص مثل عامل البناء، والبهلواني.

تابع ماكان كلامه:

«تقبع خلف المتجر غرفتان أو ثلاث، تقطن فيها العجوز وابنة أختها، وفوقهما مخزن كبير تابع للمتجر حيث أنهم يستأجرون المكان برمّته».

أخبرته بأنه أبلى بلاءً حسناً، وسألته فيما إذا كانت الدمية تذكره بشخصٍ ما، رمقني بنظرات شكٍ ثم طلب مني أن أخبره بجفاف فقلت:

«حسناً، أعتقد أنها تشبه بيترز».

انفجر قائلاً إنه أحسّ بشيء مماثل، أردفتُ:

«أياً كان من صنع تلك الدمية فإنه يعرف بيترز جيداً، حيث يجب أن يكون بيترز قد جلس أمام صانع الدمية كما يجلس المرء أمام فنان، أو نحات، أتساءل لمَ أراد بيترز أن يحوز على دمية تشبهه إلى هذا الحد!

لقد كان لدى ريكوري نية للذهاب إلى ذلك المتجر ولا أعلم على وجه التحديد ما الذي لفت انتباهه هناك، لدي سبب للاعتقاد بأن ما دفعه للذهاب إلى

المتجر الموسوم هي معلومات حصل عليها من شقيقة بيترز ، قلتُ له متسائلاً:

«أتعرفها بما يكفي لنقوم بزيارتها والاستفادة منها علّها تعلم شيئاً متعلقاً بما نروم؟ سوف نتحدث إليها بلباقة دون إخبارها بمرض ريكوري».

أجاب:

«لن أقوى على الذهاب بدونك ، فأنت تعطيني مزيداً من الثقة والصدارة ، وأن (مولي) ليست على قدرٍ من الغباء ، ...»

تلعثم قليلاً ثم تابع:

«لا أعرف ما إذا كان ريكوري قد أخبرك ولكن امرأة دارنلي قد فارقت الحياة بذات الطريقة التي توفي فيها بيترز وكان لدينا اعتقاداً مفاده أن كليهما قد التقطا المرض ، أو العدوى ، أو أياً كان ما أصابهما — من ذات المكان وأعتقد أن مولي من أرسلت ريكوري إلى متجر السيدة مانديليب العجوز».

تبادلنا النظرات بيأسٍ مدقع ، وبدت كل الأحداث جامدة دونما حياة ، فقد يبست البقعة الشمعية التي خلفتها الدمية الملعونة ، حينها كنت أتغلب على إحجامي عن جمع الفوضى لتحليلها عندما جاء برايل ، كان وجهه شاحباً مما أثار قلقي.

لم أشأ إخباره عما دار بيني وماكان واكتفيت بسؤاله عن خطبه فقال متردداً:

«استيقظت هذا الصباح و أنا أفكر في هارييت ، كنت أعلم أن الرمز المشفر ١-٩-٤ الذي أشارت إليه كان رمزاً بعيداً عن ديانا ، فكرتُ في أنه قد يعني مذكرات أو شيئاً من هذا القبيل وظلت هذه الفكرة تطاردني حتى أتيحت لي الفرصة وذهبت أنا وروبينز إلى شقتها ، بحثنا حتى وجدنا مذكراتٍ صغيرة بلون أحمر وشرعت أقرأ الأجزاء التي أعتقد أن لها صلة ببحثنا فوجدتُ صفحة كتبت فيها:

(في شهر تشرين الثاني ، ذهبتُ إلى متنزه - باتيري — لإلقاء نظرة على حوض الأسماك الجديد حين حدثت معي تجربة فريدة من نوعها ، حيث أمضيتُ ساعة أتجول في بعض الشوارع القديمة أبحث عن شيء أحمله معي كهدية لديانا ، حين مررتُ بأغرب متجر رأيته يوماً ، بدا لي جذاباً وقديماً بعض الشيء مع بعض الدمى الرائعة تزين نوافذه ، وقفت أرقبُ المكان بعين الفضول والدهشة ، كانت هناك فتاة شقراء داخل المتجر ، لم أتبين ملامحها في بادئ الأمر ، حتى أدارت ظهرها ، ونظرت إليّ نظرةً أصابتني بالفزع ، حيث كان وجهها أبيضاً شاحب اللون بعينين واسعتين

لم أرَ مثلهما قط، كانت أغرب فتاة مرّت عليّ يوماً.

استمرت تحدق بي لما يقرب الدقيقة ثم هزّت رأسها بعنف وأشارت لي بيدها لأغادر المكان مما زاد فضولي لأن أدخل المتجر وأتحقق من الأمر بنفسي، لكني نظرتُ إلى ساعتي ووجدتُ أنه وقت عودتي إلى المشفى.

حين هممتُ بالمغادرة لفت انتباهي وجود باب خلفي صغير ظهرت منه عجوز شمطاء، جعلتني رؤيتها بهذا الشكل وكأنها جذع شجرة يابس أرغب بالركض بعيداً، أزعجني أنني لم أكن أملك الوقت الكافي للتحري عن المتجر لكنني اكتفيتُ بالمغادرة وعزمت على العودة في وقت لاحق.

طرقتُ سبيلي برأس مثقلٍ بالأفكار، ما مشكلتي كزبونةٍ تريد شراء دمية من متجر؟ أكان متجر دمى حقاً؟ أم واجهةً لشيء آخر؟

عدتُ إلى المتجر الموسوم بعد ظهر اليوم مضرجةً بالغموض، مستسلمة لفضولي بشكلٍ كامل، لا أعتقد أن الأمر لغزٌ كبير فحسب، بل أظن مالكتهُ مجنونةً أو بها طيفُ اختبال، لم أتوقف خلف النافذة هذه المرة، بل دخلتُ فوراً فرأيتُ ذات الفتاة الشاحبة تجلس إلى منضدةٍ صغيرة في الخلف، الغريب في الأمر أنها

بدأت ترتجف بغضب عندما رأتني وقالت أنه لا يجدر بي القدوم إلى حيث أنا فنوّهت على أنها صاحبة أغرب متجر رأيته على الإطلاق، وتساءلتُ فيما إذا كانت تضجر من أن يبتاع الناس دُماها فقالت بهمسٍ وسرعة هائلة:

«لقد فات الأوان، لا يمكنك المغادرة الآن ولكن لا تلمسي أي شيء إطلاقاً».

ثم غيّرت نبرة حديثها وتساءلت إذا ما كنتُ أريد أن تُريني شيئاً محدداً بعد أن فُتح الباب الخلفي مرة أخرى، فخرجت منه ذات المرأة العجوز، كان طولها حوالي ستة أقدام بنهدين كبيرين، ووجهٍ طويل، كان وجهها يميل إلى اللون البني، تمتليه بضع شعراتٍ رسمت شارباً خفيفاً.

كانت عيناها هي الجزء الذي جذبني بشكلٍ أكبر من غيره لكونها سوداء هائلة بطاقةٍ رهيبة، على النقيض من الفتاة البيضاء ذات الوجه الشاحب التي بدت وكأنها مستنزفة من الحياة.

حدقت فيها لبرهة ثم قلتُ لها باستغراب جمٍ:

«يا لهما من عينين كبيرتين أيتها الجدة العجوز»

أجابت:

«من الجيد أن أراكِ بوضوحٍ عزيزتي».

لفت انتباهي أن لها أسناناً كبيرة صفراء مما جعلني أتساءلُ قائلة:

«يا لها من أسنانٍ كبيرة يا جدة!».

فردّت قائلة:

«ألا تظنين أنه من الجيد أن أُشاطرك طعامك؟»

اعتقدتُ أن الأمر لا يعدو كونه هراءً، تداركتُ الموقف بغباء قائلة:

«كيف حالكِ إذاً؟»

ابتسمت ولمستني بيدها مما جعلني أشعر بإثارة غريبة من نوعها، حيث سببت لي رؤية يديها ذات الأصابع المستدقة والبياض الناصع صدمةً كبيرة، حيث بدت وكأنها لا تنتمي لجسدها الخشن ولون بشرتها الأسمر.

ابتسمت وقالت:

«أنتِ تحبين الأشياء الجميلة».

بدا لي صوتها ناعماً كيديها تماماً حين أومأت إليّ برأسها لأتبعها إلى حيث تذهب، لم أبدِ اهتماماً للفتاة الشاحبة، وتبعتها دونما كلام، عندما دخلتُ خلال الباب أدرت رأسي ونظرتُ إلى الفتاة التي بدت نظراتها خائفةً أكثر من أي وقتٍ مضى، ثم همست لي قائلةً:

(إياكِ جحودُ قولي).

عندما تبعتُ العجوز إلى الحجرة الموسومة، اجتاحني شعور غريب بأنني لم أعد في نيويورك ولا في الولايات المتحدة برمتها، بل شعرتُ أنني لم أعد أنتمي إلى أي مكان على وجه الأرض!

كنتُ أحسّ أن المكان الحقيقي الوحيد في هذا الكون هو حيث أنا، كان الأمر مريعاً بحق، حيث بدت الغرفة أكبر مما كنتُ أحسب، وأكبر نسبةً لحجم المتجر.

ظننتُ في بادئ الأمر أن للضوء تأثير على مدى الرؤية مما يعكس حجماً مموهاً للغرفة، كانت الجدران مليئةٌ تماماً بألواح قديمة وجميلة، مزينةٌ بنقوش بارزةٌ للغاية، كما يوجد موقد أُضرمت فيه النار مما جعل جو الغرفة دافئاً بشكل غير عادي، بينما امتلأ المكان برائحة الحطب المحترق.

كان كل شيء غير مألوفاً في تلك الغرفة، الأثاث العتيق، رائحة المكان، بل وحتى ملامح تلك العجوز التي لا تمت بصلة لنعومة يديها ورقة صوتها.

أجد صعوبة في تذكر ما كان موجوداً في تلك الغرفة، إلا أنني أتذكر بوضوح تلك الطاولة الضخمة التي تعتليها لوحة بارونية آسرة للنظر، وأتذكر بشكلٍ أدق تلك المرآة المستديرة التي كانت نقية كنقاء

السماء ، يحتضنها إطار من خشب الصندل ، كانت تعكس ما في الغرفة بين الفينة والأخرى لتجعلها تبدو وكأنها محفلاً راقصٌ ، حيث كان كل ما تعكسه يتراقص فوق نقائها كما تتراقص أوراق الأشجار على مرأى من بحيرة نقية حين يحركها النسيم.

وجدتُ نفسي حينها أخبر الجدة العجوز كل شيء عن نفسي ، وعن الصغيرة ديانا ، لم أفقه السبب حتى الآن ، وفي خضمّ حديثنا ، ذهبت إلى خزانةٍ كبيرة من تلك المصنوعة من خشب الصندل ذاته وأحضرت إليّ دمية مُدهشةً للنظر ، كانت تبدو باهظة الثمن لما فيها من دقة الصنع والتفاصيل ، وتساءلتُ عن الشيء الذي يدفع سيدة غنية مثلها أن تفتتح متجراً للدمى ، فجاملتني قائلةً:

«حتى أستطيع أن ألتقي بأشخاصٍ لطفاءٍ كما أنتِ».

مررتُ مجدداً بالمرآة المستديرة وأمعنتُ النظر فيها ، بدا لي كل شيءٍ غريباً وكبيراً حتى شعرتُ أنني أحدّق في مكان ثانٍ ، ثم بدا كل ما كنتُ أراهُ جلياً بالاختفاء ، كان كل شيء من حولي ضبابياً ما خلا انعكاسي الذي بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً حتى أصبحتُ بحجم دمية!

أغمضتُ عيني لبرهة ، ثم عاودتُ النظر مرةً أخرى

فعاد كل شيء إلى سابق عهده.

أفقتُ مما كنتُ فيه ونظرتُ إلى ساعتي مندهشةً؛ لأنني قضيتُ كثير من الوقت عند العجوز التي أطلقت على نفسها اسم (مانديليب)، فهممتُ بالرحيل مسرعة.

لحقت بي السيدة مانديليب وأوصلتني إلى باب المتجر بينما لم تنظر إلي تلك الفتاة الشقراء بتاتاً، ودعتني العجوز وطلبت مني المجيء يوم غد لتعطيني الدمية، فودعتها ومضيتُ غائرةً ببحر أفكارٍ لا قرارَ له.

تساءلتُ لمَ عكست تلك المرآة كل شيء في الغرفة بينما عزفت عن أن تعكس صورة العجوز؟ إنه أمراً أثار حيرتي وفضولي، كما تثور الحُمم في البراكين، لكنني عاهدتُ نفسي على ألا أعود إلى متجر الدمى ذاك مجدداً.

عدتُ إلى منزلي مُنهكة فعزمتُ على النوم لأستريح من عناء العمل وصراع الحيرة، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد راودني كابوس تلك الليلة مفادهُ أنني أقف في ذات الغرفة وأمام ذات المرآة، كانت الغرفة مضاءة دونما نوافذ، حين امتدت يد ناصعة البياض من داخل المرآة وأمسكت بي محاولةً سحبي

إلى الداخل فصمدتُ أمامها ، وحاولتُ جاهدةً الإفلات منها حتى أفقتُ وشعرتُ أن قلبي ينبض بشدة محاولاً الهروب خارج صدري من فرط الوجد والهلع.

في اليوم التالي ، خرجتُ من المشفى عند تمام الرابعة عصراً ، وأخذتُ قراراً قطعياً بألا أعود إلى متجر الدمى الموسوم ، وقفتُ بانتظار قطار الأنفاق الذي سيقلني إلى (باتيري) حيث أقطن ، لكنني وجدتُ نفسي أغير مساري باتجاه متجر السيدة مانديليب ، لم أكن أعلم السبب الذي يدفعني لتكرار الزيارة إلى هناك لدرجة أنني اعتقدتُ أن بي طيفاً من الجنون ، أو مرضاً عصبياً ، فقررتُ أن أستشير الطبيب لويل ، خدعتني دجى أفكاري التي جعلتني أخالُ نفسي جَحوداً بعدم عودتي إلى السيدة العجوز وشكرها.

كان من دواعي سروري أن يقدم لي أحدهم دمية مدهشة كتلك التي رأيتها في المتجر ، وشعرتُ أنه من السخف الخوف من امرأة عجوز لطيفة كالسيدة مانديليب ، بل كنتُ أشعر بطفولتي تطغى حين أفكر بهلع ، كما لو كنتُ طفلةً تهرب من ساحرة شريرة بحق.

لا أخفي نفسي سراً أنني كنتُ أشعر حين دخولي تلك الغرفة الملعونة وكأنني (أليس في بلاد العجائب) ، أريد الهروب حتماً ولكن دونما جدوى ، وحين أغادرها

أشعر وكأنني أغادر قلعةً مسحورة أروم زيارتها كلما لاحت شمسٌ في أفق.

قررت بعد ظهر يوم أمس زيارتها حال إنهاء عملي في المشفى ، فاستطرقت سبيلي إلى هناك حين غمرني شعور بأن هنالك سحابة ضمتني وشرعت تسحبني باتجاه المتجر دونما إرادة ، نعم لقد كنتُ مسلوبة الإرادة بشكل كامل حتى وصولي.

كنتُ أعتقد أن السيدة مانديليب امرأة رائعة رغم غرابتها التي كانت تسحر الأنظار ، عندما وصلتُ إلى متجر الدمى رأيت تلك الفتاة الشقراء التي تدعى (لاشنا) ، وقد رمقتني بنظرة ملؤها الخوف ، بل وكانت غريرة بالدموع ، وبها شيء من التوسل ثم قالت بصوت غريب مختنق:

«تذكري أنني حاولت إنقاذكِ».

بدا لي الأمر مضحكاً حتى ملأ صوت ضحكي أرجاء المتجر حين فتحت السيدة مانديليب الباب وحضرت حاملةً معها لُطف الكون ، وسحر الجمال ، كانت رؤيتها أشبه بالعودة إلى المنزل بعد يوم شاق ، ومما أثار فضولي هو شعوري بأن المكان جزء لا يتجزأ من تلك السيدة ، فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودها.

توجهت بعد ذلك نحوي ثم قالت:

«أرغب في أن أصنع دمية تشبهكِ يا صغيرتي».

شعرتُ بالخوف مما قالت لوهلة، فقد تذكرتُ الكابوس الذي بات يراودني كصديقٍ وفي كل ليلة، لكنني وافقت أخيراً لكيلا أكون فضاً أو جحوداً.

أحضرت السيدة مانديليب كمية من الشمع وبدأت بتشكيل رأس الدمية — أو رأسي — فقد كانت دقيقة الصنع إلى حدٍ لا يصدق، ثم بدأت بتشكيل الأصابع المستدقة بشكل متناهي الدقة، لقد كنت أشعر بالانبهار وأنا أنظر إلى طريقة صنع الدمية — أو صنعي — حتى اجتاحني النعاس بشكل مثير للدهشة، لم أعد أملك السيطرة على جفوني لكنني تمالكت نفسي لبعض الوقت، ثم طلبت مني أن أشيح عني ثيابي؛ لتتمكن من صنع باقي تفاصيلي فامتثلتُ لقولها دونما جدال، وجلستُ أرقب الشمع يتشكل تحت بنانها حتى صار نسخة مثالية عني، لا أذكر أنني رأيته بكامل تركيزي؛ لأنني أعتقد أن النوم سرقني فرحتُ في غياهب طرقاته المظلمة، وبعد فترة لا أعلم كم كانت على وجه التحديد، استيقظت لأجد السيدة مانديليب تربت على يدي لإيقاظي، فتحت عيني فقالت لي:

«أعتذر لأنني أتعبتكِ يا صغيرتي، لكن الوقت قد تأخر كثيراً وم ن الأفضل لكِ أن تعودي أدراجك؛ لأن

صنع الدمية يطول أمره قليلاً ، يمكنكِ القدوم يوم غد لاستلام دميتك».

كان نظري يشوبه النعاس فلم أستطع التركيز فيما قالت تماماً ، فوضعت يديها على عيني لأجد نفسي مستفيقة كأنني لم أنم قط ، قلتُ لها أن تطلب مني ما شاءت من النقود إزاء صنعها تلك الدمية فقالت إنها أخذت حقها حين سمحت لها بصنع دمية تشبهني ، ضحك كلانا ثم خرجت لأعود أدراجي.

عدتُ إلى المتجر بعد ظهر اليوم التالي وجلستُ أمام الجدة العجوز لتضع اللمسات الأخيرة على دميتي ، قلتُ في سريرتي:

«إنها عبقرية حقاً ، من المهين أن لها متجراً صغيراً كهذا ولم تكن بين الفنانين العظام»

لقد كانت الدمية نسخة طبق الأصل عني ، وبعد هنيهة طلبت مني بضع شعرات من رأسي لتركبها برأس الدمية وبالطبع سمحتُ لها بذلك ، لكنها أخبرتني بأن هذه الدمية مجرد نموذج مصغر وأن الدمية الحقيقية ستكون أقل قابلية للتلف ، أعطتني دميتي بوقت قياسي ، ابتسمت إلى لاشنا عند خروجي على الرغم من أنها لم تكن ودية مما جعلني أتساءل فيما إذا كانت تشعر بالغيرة؟).

13 تشرين الثاني

هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالرغبة في الكتابة مذ حدثت تلك الحالة المروعة لبيترز ، كنت قد انتهيت للتو من الكتابة عن دميتي حينما جاءني اتصال من المشفى يطلبونني للخدمة تلك الليلة ، قلت إنني سأحضر بالطبع ولكني تمنيت لو لم أفعل ، لن يفارق ذلك الموت المروع مخيلتي ما حييت.

عندما عدتُ إلى المنزل ذلك الصباح ، لم يفارق السهاد مقلتي ، لقد عاهدتُ نفسي مسبقاً على عدم التأثر بأي مريض لكن ما حدث لبيترز ظل يجوب تلافيف رأسي ، فاعتقدتُ أني بحاجة لرؤية السيدة ماندليب فهي الوحيدة القادرة على إخراجي مما كنتُ فيه ، لذا فقد عقدتُ العزم على أن أذهب إلى هناك في تمام الساعة الثانية عشر ظهراً ، كانت السيدة العجوز في المتجر مع لاشنا وبدت متفاجئة لرؤيتي في وقت مبكر كهذا وشعرت أنها لم تُسر لقدومي لسببٍ أو لآخر.

شعرتُ بتحسن حال دخولي إلى المتجر ، بينما كانت السيدة ماندليب تصنع شيئاً باستخدام أسلاك بيد أني لم أستطع إدراك ماهيته؛ لأنها جعلتني أجلس

على كرسي كبير ومريح وأعطتني كتاباً لأسلي نفسي من خلاله ، كان كتاباً قديماً من النوع الطويل ، حيث كانت أوراقه تميل إلى اللون الأصفر وبانت الصور والألوان داخل الكتاب وكأنه قادمٌ من العصور الوسطى ، كانت الصور مرسومة من قبل الرهبان حيث كانت المشاهد عبارة عن غابات وحدائق وأزهار ، فيما لم يحتوِ على شخوصٍ بشكل واضح ، بل كانت مجرد أعين تجعلك تتوجس ريبة من شعورك بأن أحدهم ينظر إليك خلال تلك الصور ، كنتُ أخوض غمار الكتاب المصور حين نادتني السيدة ماندليب لرؤية شيء ما من صنعها ، فذهبتُ حيث أشارت لأجد هيكلاً عظمياً صغيراً مصنوعاً من الأسلاك بدقة كبيرة ، حتى بدا و كأنه هيكل عظمي لطفل.

مددتُ يدي لآخذ الهيكل فامتثل وجه بيترز أمام ناظري مما جعلني أجن لبرهة وصرخت في لحظة من الذعر حتى سقط الكتاب من بين أناملي وسقط على الهيكل العظمي الصغير ، مما أصدر صوت طنين حاد فخلتُ أن ذاك الهيكل يقفز ، وبعد هنيهة لاحظت أن نهاية السلك قد انفصلت وقطعت غلاف الكتاب مما أثار ضغينة السيدة ماندليب ، أمسكت بذراعي وضغطت عليه ورمقتني بعينين غاضبتين وقالت بصوت

غريب:

«لمَ فعلتِ ذلك؟».

لم ألُمها إطلاقاً فقد اعتقدت أنني فعلتُ ذلك عمداً ، ولكن حالما رأت الوجل في عيني عاد صوتها لطيفاً واختفت حدّة نظرتها ثم طلبت مني أن أستلقي على أريكة مريحة وشرعت تدلّك شعري وجبهتي مما أشعرني باسترخاء شديد ، و بعد أن هدأت من روعي قليلاً سألتني فيما إذا كان بإمكانها مساعدتي ، لم أكن متأكدة من أنه يتوجب علي الحديث لكنني بدأت أحدثها وبلا إدراك عمّا حدث مع بيترز ، وكيف نقله ريكوري إلى المشفى في ساعة متأخرة من الليل مما جعلني أظن أنه رجل عصابة سيء السمعة ، وأخبرتها عن الطبيب لويل وكم أنه إنسان رائع ، وأنني في حالة حبٍ من طرف واحد مع الطبيب.

شعرتُ بالأسف لإخبارها تلك التفاصيل بيد أن يداها جعلتني أشعر بالهدوء والنعاس ، فطلبت مني أن آخذ قسطاً من الراحة وأنام وأنها ستوقظني متى ما أردت.

استسلمتُ للنعاس ورحتُ في نومٍ عميق حتى حلول الرابعة ، كان كل شيءٍ كما هو حين استيقاظي ، تقدمت باعتذاري للسيدة مانديليب فقالت لي ألا أبالي إطلاقاً

ثم طلبت مني ثوب التمريض خاصتي لتصنع مثله للدمية الجديدة).

١٤ تشرين الثاني

(تمنيتُ لو لم أذهب إلى متجر السيدة مانديليب، لم أكن لأحرق قدمي، لكن هذا ليس السبب الحقيقي الذي جعلني أندم على ذهابي، لكني أتمنى لو لم أذهب حقاً.

أخذتُ زي التمريض وذهبتُ إليها ذلك المساء، لقد قامت بصنع نموذج مصغر منه بسرعة كبيرة.

بدت لي غريبةً ذاك الأصيل فقد باتت تغني لي أغانٍ بكلماتٍ خلوّةٍ من الفهم بلغةٍ غريبة تساءلتُ عن ماهيتها فقالت إنها لغة أولئك الناس الذين نظروا إليّ خلال صور الكتاب.مكتبة .. سُر مَن قرأ

استغربتُ قولها، كيف لها أن تعرف أنني شعرتُ بنظرات ساكني الكتاب؟

كانت السيدة مانديليب تخمر الشاي وتسكب لنا كوبين لنشرب أثناء حديثنا، وحين قدّمت لي كوبي ارتطم بكوعي وانسكب الشاي على قدمي اليمنى، لقد تألمتُ بشكلٍ مريع فخلعتُ الحذاء والجوارب فوراً، وجلبت لي مرهماً للحروق وقالت إنه سيشفي قدمي بسرعة.

وبالفعل ، شُفيت قدمي وتوقف الألم ، بدت السيدة ماندليب حزينة لذلك لكنها لم تبدِ اعتذاراً ولم ترافقني إلى الباب كالمعتاد مما أثار استغرابي ، بينما كانت لاشنا تقف بالقرب من المخرج ترمقني بذات نظرات الوجل ثم أخذت دموعها تنهمر حالما رأت قدمي ولم أعلم السبب الذي يكمن وراء ذلك).

١٥ تشرين الثاني

(بدأت قدمي تتماثل للشفاء ، لم يعد لدي أي رغبةٍ بالعودة إلى متجر السيدة ماندليب واجتاحتني رغبة بتحطيم الدمية التي صنعتها من اجلي ولكنني لم أرغب بكسر قلب طفلتي الصغيرة).

20 تشرين الثاني

(لم أعد أتذكر تلك السيدة إلا عندما أنظر للدمية ، وأنا سعيدة جداً لذلك ، لكني ما زلت أشعر بالأسف حيال ما مررتُ به وتمنيت لو لم ألتقِ بها مطلقاً).

كانت هذه آخر إشارة إلى السيدة ماندليب في مذكرات الممرضة والترز حيث فارقتها الروح صباح الخامس والعشرين من تشرين الثاني.

نهاية دمية بيترز

مكث برايل طويلاً أمامي ، يرقبُني عن كثب بينما قابلتُ نظرتهُ الاستجوابية وحاولت إخفاء الاضطراب الذي خلّفته يوميات الممرضة والترز قائلاً:

«لم يطرأ على بالي يوماً أن والترز تمتلك خيالاً واسعاً».

احمرّ وجهه وتملّك الغضب من كل كيانه وقال:

«هل تعتقد أن ما سردتهُ في مذكراتها لا يعدو كونه محض خيال؟»

أجبتُ موضحاً:

«ليس هذا ما قصدته على وجه التحديد ، بل أن مراقبة سلسلة من الأحداث اليومية العادية من خلال سحر الخيال النشط سيكون تفسيراً بديهياً أكثر لوصف حالها».

أعقب برايل:

«ألا تدرك أن ما كتبتهُ والترز هو وصف أصيل ومتكامل بشكل لا يصدق لشخص تعرض لتنويم مغناطيسي؟»

أجبتهُ بثقة:

«لم يفُتني هذا الاحتمال ، لقد خطر ببالي لكني لم أجد دليلاً فعلياً يدعم هذه الفكرة ، لذا فأنني أدركتُ أن والترز لم تكن متزنة تماماً كما كنتُ أخالها ، بينما تشير الدلائل برمتها إلى أنها كانت تعاني من عاطفية مفرطة حيث كانت مرهقة للغاية و في حالة من عدم الاستقرار النفسي والعصبي في واحدة من زياراتها المتكررة إلى متجر السيدة مانديليب على الأقل ، لقد تم تحذيرها من قِبلي بشأن ما حدث لبيترز ومن المفترض أن تتذكر تحذيري الذي ينصّ على عدم قول أي شيء لأي شخص إطلاقاً».

أردف:

«أتذكر ذلك جيداً ، حتى أنني لم يكن لدي أدنى شك في قضية تنويمها مغناطيسياً حين قرأتُ ذلك الجزء من المذكرات ، وعند النظر في سببين محتملين لهكذا فعل ، فمن المستحسن قبول السبب الأكثر منطقية».

قلتُ بجدية:

«ضع في اعتبارك الحقائق الفعلية برايل ، فأن والترز قد وضعت في مذكراتها تشديداً على السلوك الغريب للفتاة الشقراء وتحذيراتها ، حيث تعترف أن الفتاة عدوانية لو جاز التعبير ، بيد أن والترز تتصرف بإرادةٍ كاملة دون أدنى إكراه.

إنها تلتقي بامرأة تحفز خيالها الخصب وتثير عواطفها ، حيث جعلتها تثق بها وتحبها من خلال إهدائها دمية..

ساد الصمتُ لبرهة ثم أكملت تحليلي للأمور قائلاً:

«إن المرأة فنانة بلا شك . وقد رأت في والترز نموذجاً مرغوباً به لصنع دمية ، فطلبت منها بلطف ودون إكراه أن تقف ماثلة أمامها ككل الفنانين لتصنع دمية تشبهها ، بينما من المحتمل أن يشير مشهد صنع هيكلٍ عظمي إلى موت والترز ، وتدعم صورة بيترز التي أثرت بقوة في خيالها قضية لقيا مصرعها ، أما حالتها الهستيرية بين الفينة والأخرى فتدعم بالتأكيد حالتها العصبية المرهقة ، في حين أن ليس للجزء المتعلق بتناول الشاي أدنى ريبة فقد كان تسلسل شائع للأحداث ولا دليل على كونها منومة مغناطيسياً ، وعلى افتراض حدوث ذلك ، فما الدليل على الدافع؟».

أجاب:

«لقد سلّمتها نفسها لتصنع منها دمية يا عزيزي».

كنتُ قد أقنعتُ نفسي بحجّتي وأغضبتني هذه الملاحظة فأردفتُ قائلاً:

«لنفترض صحّة قولك ، أتريدني أن أصدّق أنه بمجرد إغرائها للدخول إلى المتجر ، تقوم قوى السحر

والشعوذة بدفع والترز إلى العودة مراراً إلى أن يتم تحقيق الغرض الشيطاني للسيدة مانديليب؟ بينما حاولت الفتاة الرحيمة الشقراء إنقاذها فيقف القدر حاجزاً كما وصفته الميلودراما القديمة التي ذكرت أن (القدر أسوأ من الموت) ، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن المصير الذي قصدته على وجه الخصوص ، و أن الدمية كانت الطعم الذي كان بمثابة خطّاف الساحرة ، أي كان بمثابة الفخ الأول ، أما الثاني فقد كان حادثة الشاي والذي أفترض أنه مفتعلٌ ، حيث كان المرهم من حمل الموت في طياته إلى والترز.

لذا فأن روح والترز ترفرف داخل مرآة الساحرة الآن ، تماماً كما حلمت ، وكل هذا يا عزيزي برايل هو من أفظع الخرافات!».

أصبح برايل أكثر انفعالاً وقال:

«يبدو أن عقلك ليس متحجراً كما خلتهُ قبل قليل».

أجبت:

«أنت تفترض أن كل حادثة سردتها والترز مذ دخولها المتجر كانت مصممة لمنح السيدة مانديليب روح والترز؟ وهو التصميم الذي اكتمل بموتها؟».

تردد ثم قال:

«في جوهر الأمر ، نعم هذا ما أعنيه».

تأملتُ بسخرية ثم أجبت:

«لكنني لم أرَ روحاً من قبل، ولم أرَ أي شخص ممن أقدر شهاداتهم قد رأوا روحاً. ما هي الروح إن وجدت؟ هل هي شيء مادي قابل للتأمل؟ كيف يمكن للمرء أن يعرف أنه يمتلكه إن لم يكن بإمكانه رؤيته أو الشعور به أو سماعه؟ إن لم يكن محسوساً. فكيف يمكن للمرء تقييده وتوجيهه وحصره؟ إذا اعتبرنا اقتراحك صحيحاً فأين تسكن الروح إذاً؟ هل تقبع داخل الدماغ؟

لقد أجريتُ جراحاتٍ لا تعد ولا تحصى ولم أجد بعد اي غرفة سرية تضم هذا الساكن الغامض.

للدماغ خلايا صغيرة أكثر تعقيداً في عملها من أي آلة تم ابتكارها على الإطلاق. فبإمكانها تغيير عقلية صاحبها وحالته المزاجية والعاطفية والشخصية وفقاً لكونها بصحة جيدة أو تعاني من مرضٍ ما. لم تكن روحاً يوماً ما.

لقد اكتشف الجراحون بدقة توازن الجسم. هم مثلي لم يعثروا على أي معبد سري يقبع داخله. أرني روحاً يا برايل وسأؤمن بالسيدة مانديليب».

نظر إلي بصمتٍ مدقع ثم قال:

«لقد تعلمنا أن المنطق سيد الحياة. بيد أن ما نقاسيه حالياً ليس أمراً طبياً. إنه خارج العلم الذي

نعرف ، سوف لن نصل إلى الحقيقة حتى نعترف بذلك،
لقد مات بيترز وامرأة دارنلي بنفس النوع من المرض ، زارها على إثرهما ريكوري و نجا من الموت بأعجوبة بينما لحقت هارييت بالفقيدين ، ألا يشير هذا إلى السيدة مانديليب كمصدر محتمل للشر الذي تفوق عليهم؟».

أجبتهُ:

«بالتأكيد».

أدركتُ بعد فوات الأوان المعضلة التي وضعني فيها إقراري لكني لم أستطع الإنكار ، أكمل برايل:

«ما أردتُ قوله أيضاً هو فقد والترز الرغبة في العودة إلى متجر الدمى بعد حادثة إبريق الشاي ، هل أثار ذلك فضولك؟».

أجبتُ:

«ليس بشكلٍ خاص ، لماذا؟».

قال موضحاً:

«إذا كان تطبيق المرهم هو الفعل الأخير المؤدي إلى الموت فقد يكون من المحرج للسيدة مانديليب أن تدخل ضحيتها وتخرج خلال الوقت الذي استغرقه السم لقتلها ، لذا فمن المرجح أن الاستيلاء قد حدث في تلك الأثناء وبالتالي فأن الشيء الذكي الذي جعل

الضحية تفقد الأمان بعد أن كانت مطمئنة، هو الشعور بالنفور نحوها مباشرةً، بعد اختفاء أثر التنويم المغناطيسي، أليس هذا منطقياً؟.

اعترفتُ:

«نعم هذا صحيح».

أعقب:

«وهكذا يصبح لدينا تفسير واضح لفشل العجوز في مرافقة والترز إلى الباب ذلك اليوم فقد نجحت مؤامرتها وانتهى كل شيء».

عبر برايل إلى البقعة المتفحمة على الأرض والتقط البلورات المتوهجة والتي كانت بحجم حبتي زيتون، مشى صوب الطاولة وتأمل الشكل الغريب ذي الأضلاع الهيكلية ثم قال:

«لنفترض أن الحرارة قد أذابت هذا الشيء، ....».

مد يده لالتقاط الهيكل فأصدر صوتاً حاداً مما جعله يسقطه ويقف شاخصاً مذهولاً بينما أخذ ذلك الشيء يتلوى مثل الثعبان ثم اختفى ما كان يشبه جسداً مترامي الأطراف، مسطحاً، مقطوع الرأس، وخلّف غباراً رمادياً ناعماً كوّن سُحباً خيّمت على المكان لهنيهة ثم اختفت أيضاً...

قبعة الممرضة وسُلم الساحرة

اجتاحت رأسي ذات الفكرة التي راودتني حيال ماكان، إزاء ما يتعلّق بحرق الأدلّة أو إخفائها، توجهتُ نحو برايل قائلاً:

«أنت تعرف تماماً كيف تتخلص من الأدلّة».

ضحكِ الأخير دونما أماراتِ بهجة، مما جعلني أحتفظ بكلامي وأقترح أن نذهب كلانا إلى غرفة ريكوري؛ تجنباً لخوض نقاشاً آخر حول الموضوع.

ذهبنا إلى المُلحق حيث يمكث ريكوري فوجدنا حارسين لم نألفهُما مسبقاً، كانا لطيفان للغاية حيث استقبلانا بأدبٍ شديد ورحبا بنا ترحيباً جمّاً، دخلنا بهدوء إلى الغرفة حيث كان يرقد مريضنا بسلامٍ وسكينة، كانت ضربات قلبه مستقرةً وأنفاسه طبيعية.

تعمدتُ اختيار هذه الغرفة الهادئة الخلفية ليبقى فيها ريكوري ريثما يستفيق من غيبوبته ويستعيد زمام عافيته، كانت غرفةً صغيرةً من الطراز القديم كما منزلي، تطلُّ على حديقةٍ مُلأى بنباتات فيرجينيا الزاحفة، كما قمتُ بالتشديد على الممرضة في أن تُبقي الضوء خافتاً كأنما وميض، فهذا سيساعد ريكوري على أن يتماثل للشفاء.

حين خروجي حذرت الحراس من أن يُصدروا أي ضوضاء؛ لأنه من الممكن أن يكون سبب تشافي رئيسهم مُختبئاً ضمن طيّات الصمت.

أعلنت عقارب الساعة الآن حلول السادسة مساءً ، طلبتُ من برايل البقاء لتناول العشاء ومن ثم يعود أدراجه إلى المشفى لمراجعة مرضاي وإعلامي بآخر المستجدات ، بينما أبقى بانتظار صحوة ريكوري بفارغ الصبر.

كنّا قد شارفنا على إنهاء طعام العشاء حين رنّ جرس الهاتف ، هرع برايل ليرفع سماعة الهاتف فكان ماكان المتصل ، كان يريد الاطمئنان على حالة رئيسه فقلتُ له إنني أتوقع منه الإفاقة في أي لحظة وأن يكون حتماً قادراً على الحديث.

شعرتُ بالرضا يتخللّ نغمات صوتهِ الرنّان ، ثم أردف:

«لقد قمتُ بزيارة مولي حال مغادرتي مكتبك فوجدتُ زوجها (جيلمور) جليساً لطفليهما بينما كانت هي تحضر حفلاً موسيقياً مما جعلني آخذ قسطاً من الراحة قبل لقائها».

قاطعتهُ قائلاً:

هل لاحظت حين رؤيتها أنها تعلمُ بموت بيترز»؟

أجاب بالنفي وذكر شيئاً يخص حيازة زوج مولي على ضمادة في قدمه ، مما جعلها تتساءلُ فوراً عمّا إذا كان قد حصل عليها من السيدة مانديليب مما أثار دهشة الأخير ، لقد أخبرني مسبقاً أن مولي ليست على قدرٍ من الغباء ولكن يا لسخرية القدر!

أكمل ماكان حديثه قائلاً:

«أخبرتك أن مولي حكيمة إلى حدٍ كبير ، كما كان الرئيس تماماً ، لم أكن ألحظ كل شيءٍ بدقّة فقد كنتُ أنتظره خارجاً حين قدومه إلى هنا ، بيد أنني سمعتهُ يتساءل عدّة مرات عن الدمى ، ظننتُ أنه يحب هذا النوع من الألعاب...»

صمت لدقيقة او اثنتين مما جعلني أظنّ أن الهاتف انقطع ، بيد أنني لم أسمع صوت طقطقة أو ما إلى ذلك ، ناديتهُ متسائلاً فقال»

«أنا هنا أيها الطبيب لويل ، لكنني شردتُ لوهلة. أودّ البقاء حقاً ريثما يستفيق الرئيس لكنني أظنّ أنه من الأفضل لي أن أذهب وأكمل ما بدأتُ به ، سأعلمك بكل التفاصيل إذا لم يكن الأوان قد فات.»

ودّعته وذهبتُ نحو برايل مثقلاً بالهمّ ، محاولاً ترتيب أفكاري المشتتّة في دجىً تائه القرار ، نقلتُ له كلام ماكان فلم يبدِ رداً في بادئ الأمر ، استغرق

الوضع دقيقة صمتٍ ثم أعقب على كلامي قائلاً:

«ذهب هورتنس دارنلي إلى متجر الدمى المزعوم وجُرح هناك ، وتم علاجهُ في ذات المكان ثم لقي حتفه بلا علّةٍ تُرجى ، بينما راح بيترز ليبتاع دميةً كما سالفهِ وأُصيب كذلك ، و تم علاجهُ ثم مات ، و كذا حالُ هارييت ووالترز ، ماذا إذاً أيها الطبيب لويل؟»

شعرتُ أنني قد كبرتُ مائة عام على حين غرّة ، بل اجتاحت الشيخوخة كل جزءٍ حيٍ في جسدي ، وتلاقت أفكاري في غياهب الحيرة ، من الصعب أن يهدم المرء ما كان يظنّهُ بنياناً متماسكاً لا غُبار يشوبهُ أو خطأ ، أجبتهُ:

«لا أدري يا برايل ، لا أعرف»

ربّت على كتفي قائلاً:

«من الأفضل أن تأخذ قسطاً من الراحة ، ستتصل بك الممرضة إذا ما استفاق ريكوري ، لا تقلق سنحلّ هذا اللغز حتى لو توجّب علينا خوضه»

كررّت كلامه الأخير دونما هوادة ، ثم جلستُ بعد رحيله غارقاً في يمٍّ من الأفكار التي تتضارب داخل رأسي كما الأمواج جيئةً وذهاباً ، فقررّتُ أن أشتتّها بقراءة كتاب.

حاولت القراءة مراراً لكنني سرعان ما استسلمت ،

قمتُ متجهاً صوب النافذة المطلّة على ذات الحديقة التي تُطلّ عليها حجرة ريكوري ، كان وقوفي إلى نافذةٍ مفتوحةٍ منعشاً أكثر من أي وقتٍ مضى.

عدتُ بعدها إلى القراءة حين فوجئتُ أن الساعة قد دقّت معلنةً حلول العاشرة صباحاً ، استلقيتُ على الأريكة بكلّ ما أملك من ثقلٍ وهموم ، فرحتُ أخوض معركةً مع الوسن الذي هزمني في خضمّ الدقيقة الأولى.

أفقتُ على همسٍ ملأ أذاني ، قمتُ من نومي أفتّش عن بصيص نورٍ أهتدي به ، فوجدتُ الصمت قد أقام مستعمرةً في مكتبي ، لا شيء ما خلاه ، كان قد ملأ كل أرجاء المكان ، صمتٌ كثيف ومدقع ، وكأنه شيء ملموس!

هرعتُ أنير الغرفة ، فأزاح شعاع الضوء عُتمة الصمت وبدأتُ بالكاد أسمع دقات ساعتي كما لو كانت هي الأخرى أسيرة الصمت ، حتى عاد صوتها مسموعاً بعد لحظات ، جعلني الأمر أؤمن أن الضوء قد حرّرَ عقاربها من براثن الصمت.

سرتُ إلى النافذة لأستنشق هواء الغسق حين دقّ جرس الطوارئ الخاص بغرفة ريكوري مما جعلني أسرع إلى حيث هو ، وقفتُ مرتاباً حين لم أجد الحراس في

أماكنهم ، والباب مفتوح على مصراعيه!
دخلتُ مسرعاً لأجد أحد الحراس واقفاً في ذهول بينما يجثو الآخر بجانب جثةٍ مُلقاة على الأرض ، كما جلست الممرضة في أحد أركان الغرفة بلا حِراك ، لم أتبين كونها نائمةً أم فاقدةً للوعي.
أسرعتُ لأجد جثة ريكوري هي ما رأيتُ ، يعلوها شحوب الموت الذي شتتّه نبضٌ ضئيل ، مما يعني أن روحه لا تزال تسكنُ جثّتهُ الهامدة.
حاولتُ فحص الممرضة فلم أتبيّن ما أصابها ، لكنها على الاقل كانت على قيد الحياة.
تساءلتُ عمّا حدث فتبادل الحارسان نظرات الحيرة والريبة ، أشار أحدهما إلى النافذة دون أن ينبس ببنت شفة ، وأشار للآخر أن يتحدّث ، فقال الأخير:
«إن هذا المنزل قد أصابتهُ لعنة ، لقد سمعنا صوت شيء ما يسقط أرضاً ، دخلنا نتفقد الأمر فوجدنا الرئيس ملقىً على الأرض ، والممرضة على تلك الحال».
تساءلتُ فيما إذا كان ذلك كل شيء يودّان قوله حيال الأمر ، فتبادل الحارسان جاك وبيل النظرات بين حيرةٍ وريبة ، فقال أحدهما في تردد ملحوظ:
«نعم ، نعم .. هذا كل شيء»
أراد الآخر أن يضيف شيئاً فحال صاحبه دون ذلك

قائلاً:

«من الأفضل أن نلزم حدودنا، ونكتفي بقولنا هذا».

طلبتُ منهما إخباري بما حدث فوراً فأبى الاثنان ظناً منهما أنني لن أصدّق قولهما وأتهمها بالجنون.

ساد الصمت للحظةٍ ثم قال الحارس بيل:

«عندما فتحنا الباب لنتحرّى الأمر، وجدنا قطتين تتشاجران إلى جانب الرئيس، بعد ذلك تبعا صوتاً مضحكاً وقفزا إلى الخارج، لم نجد لهما إثراً بعد أن غادرا المكان».

سألتُهما فيما إذا كانت القطتان تشبهان شيئاً ما، فقال جاك متردداً:

«نعم، كانت إحداهما تشبه الدمية».

سرت قشعريرة في جسدي، لكنني أجبرتُ نفسي على الحديث فسألتهُ عن أي نوعٍ من الدمى يقصد؟

أجاب:

«لم نتمكن من رؤية إحداهما، بيد أن الأخرى بدت وكأنها إحدى ممرضاتك، وقد تقلصت إلى نحو قدمين».

إلهي! أنه بالتأكيد يقصد والترز!

شعرتُ بالضعف يقيمُ حفلاً في أعصابي فجثوت امتثالاً لأمره، حين لاح أمام عيني شيء لفت انتباهي،

حدّقت فيه بلا دراية ثم انحنيتُ وقمتُ بالتقاطه ، لقد كانت قبعة الممرضة والترز ، هي ذاتها التي كانت ترتديها إلا أنها قد تقلصت لتصبح مثالية لحجم رأس دميةٍ تبلغ من الطول قدمين ، إلى جانبها وجدتُ حبلاً معقوداً من شعرٍ أشيب ، حوى تسع عقد على نحو متباعد بشكلٍ غير منتظم.

قال بيل مقاطعاً تساؤلي:

«هل تريدني أن أتصل بأحد معارفك أيها الطبيب؟»

أجبت:

«حاول أن تصلني بما كان فوراً ، دعه يأتي أينما كان».

ثم وجهتُ أوامري بإغلاق الأبواب والنوافذ وإنزال الستائر ، في هذه الأثناء بدأت الممرضة تستفيق شيئاً فشيئاً ، هرعت عند رؤيتي ويبدو أنها لا تتذكر أية تفاصيل ، استمرت تحدّق في وجهي بحيرةٍ شديدة ثم قالت:

«لا أعلم على وجه التحديد ، أعتقد أنني شممت رائحة تشبه رائحة الزهور ، ثم رأيت شيئاً أبيض بات يراقبني ، وبعدها وجدتكَ أمامي ، هذا كل ما أذكر».

حاولتُ جاهداً أن أحصل على معلوماتٍ أكثر دقّة

ولكن بلا جدوى ، طلبتُ منها أن تذهب لتأخذ قسطاً من النوم مما جعلها تظنّ أنني أوجه إليها لوماً ، التمست مني سماحاً فقلتُ لها أن لا شيء مما تفكر فيه صحيح ، وأنني لا ألومها قط ، ربتُّ على كتفها وقدتها حتى الباب ثم طلبت من الحارسين أن يستمعا لما سأقوله بالحرف الواحد ، حيث أن حياة الرئيس تعتمد كلياً على طاعتهما لما أقول دونما نقاش.

اجتاحت رعشة في تلك الأثناء جسد ريكوري بأكمله ، مما يعني أنه قد تخلص من الشلل ، لكن هل سيكون كذلك حين يعود إلى وعيه؟؟

عدتُ أتوجه بحديثي إلى الحارسين وطلبتُ منهما ما يأتي:

«أريد أن ترقباني طوال الليل ، سيجلس أحدكما بالقرب مني ليراقبني عن كثب ، بينما يجلس الآخر إلى جانب ريكوري ، أريد أن توليا انتباهكما إلى ثلاث أمور رئيسية ، نبضه ، وتنفسه ، ودرجة حرارته.

والأمر الأكثر أهمية في قولي هو أنا شخصياً ، راقبا حركتي طوال الليل ، إن لم أقم بفحص ريكوري أوقفاني فوراً ، ولو قمتُ بالمقاومة قيّداني واتصلا بالطبيب برايل».

كتبتُ لهما رقم هاتفه بينما بات الاثنان يتبادلان

نظرات الحيرة دونما دليل أو بصيص هدىً.

قمتُ بإطفاء الأنوار ثم جلستُ على كرسي الممرضة الموضوع بين سرير ريكوري والطاولة ، أمسكتُ بالحبل ذي التسع عقد وأفرغتُ رأسي من كل الأفكار ، ثم استرخيتُ ورحتُ في نومٍ عميق.

شعرتُ أنني أسافر مع الريح بشكلٍ غريب ،

كانت الريح عاتيةً لدرجة أشعرتني أنني بلا جسدٍ مادي ، يعتريني وهجٌ غير إنساني ، لا تحكّم لي بذاتي ، يحكمني ذاك الوهج الشيطاني.

خلتُ أن شيئاً يدفعني لتدمير أو قتل أحدٍ ما لأستطيع الخلاص من تلك الريح ، لكن ما يعيقني كان الحذر ، كنتُ مدركاً أنني قمتُ أقيس درجة حرارة ريكوري ليس إلا ، فأيقظتني صفعةٌ شعرتُ أنها خلعت رأسي من شدّتها.

عندما أفقتُ وجدت أنني أحمل مشرطاً وأضعه على عنق ريكوري ظناً مني أنني أقيس حرارته ، لقد كنت بلا وعي ، وأوقفني حذري والصفعة اللاذعة من بيل!

سألتُ الأخير عمّا حدث ، فقال:

«يجب أن تشكرني على الصفعة اللاذعة تلك ، كان يجب أن أحطم رأسك الشيطاني ، لقد استيقظت وأخذت مشرطاً من طاولة الممرضة ثم هممت باتجاه

الرئيس وقلت إنك ستقيس درجة حرارته فقط ، أمسك جاك بك وقيدك محاولاً منعك حتى أفقت ، هذا كل شيء».

مددتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ سلّم الساحرة ذي العقد ، وضعتهُ على طبق وأحرقتهُ.

بدأ يتلوى مجدداً كالثعبان ، ثم تحول رماداً عند العقدة التاسعة.

أعقبتُ بعدها:

«ستكون ليلة هادئة بعد ما فعلت».

عدت أدراجي لأستريح من عناء ذاك الأصيل المُنهك ، صحيحٌ أن برايل لم يُرني روحاً بأم عيني ، لكنني الآن أؤمن بالسيدة مانديليب...

الدّمية القاتلة

نمتُ تلك الليلة في أحضان دُكنة السماء وهدوء الأصيل ، لم تصحبني حينها أية خيالات أو كوابيس.

استيقظت عند السابعة كما هي عادتي لأجد الحرّاس على أهبة الاستعداد ، تساءلتُ فيما إذا سمع أحدهم شيئاً عن ماكان فأجابوا بالنفي ، ثم حذرتهم من التحدث إلى أي مخلوقٍ حول الأحداث التي دارت ليلة أمس مذكراً إيّاهم بأن لا أحد سيصدق قولهم إن هم فعلوا وأكدّوا لي بصدق جليٍ بأنهم سيلتزمون الصّمت.

ذهبتُ بعدها لأطمئن على وضع ريكوري ، وجدتهُ نائماً بعمق وبشكل طبيعي حيث كانت حالتهُ مُرضية للغاية من نواحٍ كثيرة ، استنتجتُ بعد إنهاء الفحص بأن الصدمة الثانية التي تعرض لها ليلة أمس قد تصدّت للآثار المستمرة للصدمة الأولى ، لذا سيكون قادراً على الكلام والحركة حين الإفاقة ، قمت بنقل البشارة للحراس فرأيتُ أمارات الفرح ، والتساؤل تعتلي محياهم.

ظهرت ممرضة ريكوري المسؤولة عن المراقبة

الصباحية عند حلول الثامنة ، بدا لي أنها مندهشة للغاية حينما رأتني مُناوب بدل الممرضة بتلر التي كانت نائمة . لم أقدّم أيّ تفسير وأخبرتها بأن الحرّاس سيلازمون ريكوري داخل الغرفة من الآن فصاعداً.

ذهب برايل عند الثامنة والنصف لتناول طعام الفطور ، لم أخبره بما حدث وتركته في خضّم تناول الطعام ، ولم أنبس ببنتِ شفة عن قبعة الممرضة وتجربتي الخاصة.

لقد كنتُ متحفظاً جداً لأسبابٍ خاصة ، الأول أن برايل سيرتاع عند إخباره بشأن قبعة الممرضة لأنني أخاله معجباً بالممرضة والترز ، ولن أستطيع منعه من زيارة متجر الدمى حالما يعرف بما حدث ، والثاني أنه سيلازمني مثل ظلي لو علم بتجربتي الخاصة ، وستكون ملاحظاته حينها عديمة الجدوى بالنسبة لي ، وأنه سيقوض هدفي الخاص وهو مقابلة مانديليب وحدها تماماً — باستثناء ماكان الذي كلّفتهُ بمراقبة المتجر من الخارج.

من الواضح أنها كانت الطريقة الوحيدة للاحتفاظ باحترامي لذاتي ، والاعتراف بأن ما حدث كان سحراً ، وشعوذة ، وأمراً خارقاً للطبيعة ، مما يعني أنني قد استسلمتُ للخرافات وخنتُ مبادئي التي تُملي عليّ

التصديق بأن كل ما يحدث ويوجد، فإنّه يوجد في طاعة قوانين الطبيعة وليس خارقاً لها، إذا كانت مانديليب تملك علماً ليس عند أحد، فسيتوجبّ عليّ أن أكون نموذجاً للعلم بمعرفة ما يمكنني معرفته عن العلم الآخر، خاصةً بعد أن تمكنت من أن أجيب عليها بنفس أسلوبها مؤخراً مما أعطاني شعوراً لطيفاً بالثقة — إنّ لم يكن ما حدث وهماً — لذا توجّب عليّ مقابلتها دون شك.

صادف أن تكون الأيام التالية مُلأى بالعمل، فلم أتمكن التملّص منها إلاّ بعد أن طلبتُ من برايل تولي المسؤولية لبضع ساعات.

اتصلت الممرضة قرابة العاشرة وأخبرتني بأن ريكوري قد أفاق أخيراً وأنه كان قادراً على التحدّث وطلب رؤيتي.

ابتسم عندما دخلتُ الغرفة، انحنيتُ وأمسكتُ بمعصمهِ فقال:

«لقد أنقذت حياتي أيها الطبيب لويل، لن أنسى جميلك ما حييت».

بدا لي أن قواه العقلية قد عادت طبيعية مما جعل الزهور تتفتّح في غمار نفسي والراحة تتخذ مسكناً داخل روحي، ربّتُ على يده في رضىً.

قال لي هامساً:

«هل حدثت وفيات أخرى؟».

أجبتُ:

«لا ، لكنك قد بتّ خائر القوى مذ أحضرك ماكان إلى هنا ، لا أريدك أن تُجهد نفسك اليوم ، سنتحدث لاحقاً».

تمتم بعد هنيهة قائلاً:

«أوه! لقد سقطتُ من السرير هذا الصباح ، أتتذكرون؟ أشعر بالوهن أيها الطبيب ، يتوجب عليك إعطائي عقاراً يمكنني من أن أستعيد قواي».

نظر نحو الحراس ثم عاد ينظر إليّ قائلاً:

«يجب أن أستعيد قواي في غضون يومين ، هنالك ما عليّ فعله وليس بوسعي الانتظار».

لم أكن أروم إلى أن تتملكه الحماسة فلم أتساءل عمّا حدث في السيارة في اليوم المزعوم ، أجبتهُ بشكل قاطع:

«هذا سيعتمد عليك بشكل كليّ ، لا يتوجب عليك إجهاد نفسك ، سأتركك الآن مع حراسك وسأصدر أمراً بتغذيتك وعليك أن تفعل ما أُملي عليك».

أضاف دونما صبر:

«يجب أن تخبرني ما حدث».

همستُ في أذنهِ:

«يقوم ماكان بحراسة قصوى حول متجر السيدة ماندليب ، لا داعٍ للقلق فلن تتمكن من الهروب».

أجاب:

«لكن خدمها أكثر كفاءة من أتباعي أيها الطبيب!».

نظرتُ إليهِ بحدّة ، حيث كانت عيناه ممتلئة بالغموض ثم عدتُ إلى مكتبي ورحتُ في جبِّ أفكاري أخوضُ دونما هِداية.

اتصل بي ماكان في غضون الساعة الحادية عشر ، فرحت لاتصاله وسرعان ما أجبت لأتساءل عمّا كان يفعل طوال تلك الفترة ، فقاطعني قائلاً:

«اسمع أيها الطبيب ، أنا عند مولي — أخت بيترز — تعال إلى هنا بسرعة».

زاد طلبه القاطع من استفزازي ، أجبت:

«هذه ساعات العمل الخاصة بي ، لن أكون متفرغاً حتى ساعتين».

أبدى إلحاحاً مريباً وتخللّ اليأس طبقات صوته بشكلٍ لا يخلو من غرابة ، تساءلتُ عمّا حدث فقال:

«لا أستطيع إخبارك على الهاتف ، أرجو قدومك بسرعة أيها الطبيب سأكون بانتظارك».

أغلق الخط دون أن أتمكن من الرد ، عدتُ إلى

مقعدي وأنا مضطرب بشدّة ، لم يسألني عن ريكوري مما أثار انزعاجي ، ما الذي يمكن أن يكون قد أصاب مولي؟ هل علمت بوفاة شقيقها؟ بيد أن ذعر ماكان أشعرني أن هناك شيء أكثر خطورة مما جعلني أقلق بشكلٍ مفرط ، تفحصتُ جدول المواعيد الخاص بي فلم أجد شيئاً مهماً فهممتُ بالذهاب إلى العنوان الذي أعطاه لي ماكان.

قابلني ماكان عند باب الشقة حال وصولي ، كان وجهه خلواً من أيّ تباشير ، جذبني للداخل دون أن ينبس ببنت شفة ، مررتُ ببابٍ مفتوح ولمحتُ امرأةً مع طفل يبكي بين ذراعيها ، قادني بعدها إلى غرفة النوم فوجدتُ رجلاً ملقى على السرير ، تقدّمتُ نحوه و نظرتُ إليه بازدراء ثم تفحصته لأجد أن الروح قد فارقته منذ ساعاتٍ.

أعقب ماكان:

«إنه زوج مولي ، افحصه كما فعلت مع ريكوري».

انتابني إحساس بغيض بأنني أدير عجلة لا هوادة فيها ، من بيترز إلى والترز إلى ريكوري ثم الجسد الماكث أمامي ، ترى هل ستتوقف العجلة عند هذا الحد؟

جرّدتُ جثّة الرجل مما يعتليها وأخذتُ عدسةً مكبرّةً

من حقيبتي ومسابير. مررتُ أتفحص الجسد شبراً شبراً، بدءاً من القلب وانتهاءً بأخمص القدمين، لا يوجد شيء يُذكر. قمتُ بقلب الجسد لتقع عيناي على ثقب في قاعدة الجمجمة، أخذتُ مسباراً دقيقاً وأدخلتهُ فأنزلق فوراً لأجد بأنه تم دفع إبرة رقيقة عبر تلك البقعة الحيوية من الجسد لتصل إلى الحبل الشوكي مباشرةً مما أدّى إلى تمزيق المسارات العصبية بوحشية مما أحدث موتاً مفاجئاً وسريعاً.

التفتُّ نحو ماكان وأخبرته بأنه قد تم قتل الرجل بنفس الطريقة التي اغتيل بها ريكوري لكن بشكلٍ أدق، لن يعود هذا الرجل إلى الحياة كما الرئيس، سألته باستغراب عن الصدفة التي جعلته هنا عند حدوث الجريمة إلا أنه قال بإنه حضر بعد أن اتصلت به مولي وطلبت منه المجيء.

ذهبنا بعدها إلى الغرفة حيث المرأة وطفلها، لقد خمنت أن المرأة كانت في حدود السابعة أو الثامنة والعشرين من العمر، كانت لتكون جذّابة بشكل أكثر في الظروف العادية بيد أن وجهها الآن بدا خلوّاً من الدماء، شاحباً لا حياة فيه، بينما يقطن الرعب عينيها إلى حدٍ يتعذرّ على الكلمات وصفه، كانت تبدو وكأنها تحدّق في الفراغ، تفرك شفتيها بأطراف بنانها

بينما استمرت الطفلة التي لا يزيد عمرها عن أربعة أعوام بالبكاء.

أحسّت مولي بوجودي أخيراً فتساءلت بأملٍ مقطوع: «هل هو ميت؟».

لم ألبث أن أبدي رداً حتى قرأت الإجابة في وجهي وبدأت بالنحيب ، بيد أن نظرات الخوف لم تفارقها بتاتاً ، مما أثار قلقي فطلبتُ من ماكان أن يخبرها بأي شيء يبكيها أو يُغضبها ، حتى لا تُصاب بنوبة عصبية فقام بانتزاع الطفل من بين يديها مما أزاح الخوف ليحل محلّه الغضب ثم انهالت على ماكان بالضرب.

أمسك ماكان بيديها ، فأنزلتهما وارتخى جسدها ، جثت على الأرض وبدأت تذرف الدموع ، حاول ماكان تهدئتها فمنعته موضحاً أن البكاء أفضل ما يمكنها فعله الآن.

وبعد فترة قصيرة ، نظرت إلى ماكان وقالت مرتجفة:

«ما الذي يتوجب عليّ فعله الآن؟».

أجاب الأخير:

«عليك التحدث إلى الطبيب لويل وإخباره بما أخبرتني به ، ابدئي بالدمية».

بدأت مولي بسرد ما حدث:

«بعد ظهر الأمس ، ذهبتُ في جولة قبيل عودة زوجي الذي جاء عند السادسة ، أخبرني عند عودتي أن هنالك هدية لطفلنا ، لم نعلم مصدرها إلا أنه خمّن بأنها مُرسلة من أخي (توم) ، كان هناك صندوق كبير على الطاولة ، حينما قمتُ برفع الغطاء دُهشت لرؤية أكثر دمية شبيهة بالبشر رأيتها في حياتي ، ترتدي زي تلميذة وقد بدت كطفل في العاشرة من عمره ، اعتقدنا أنها من ذلك النوع من الدمى الذي يسمى (بورتريه).

كنت متأكدة من أن توم هو من أرسلها؛ لأنه قد أرسل دمية من قبل ، حتى سألتُ زوجي فيما إذا كانت تحمل بطاقة أو اسماً أو شيئاً من هذا القبيل ، فأجاب بالنفي ، ثم أعقب قائلاً إن هناك شيئاً رافق الدمية ، وقام بإخراج حبل ذي عقد من جيبه والذي بدا أنه مصنوع من الشعر ، استغربتُ أمره لكن لم أُعر اهتماماً لما رأيت.

قام بإعادة الحبل إلى جيبه بعدئذٍ ، ثم قمنا بوضع الدمية إلى جانب الصغير حتى يراها حين يستيقظ من النوم ، فرِح بها فرحاً جمّاً حينما رآها ثم تناولنا العشاء معاً ، وبعد ذلك لعبنا الورق وتوجهنا إلى مخادعنا للنوم ورفض الصغير أن أبعد دميته لذا فقد تركته ينام بجانبها.

كان طفلي لا يزال ينام في سرير منخفضٍ مخصصٍ للأطفال في إحدى زوايا غرفة نومنا بجانب إحدى النافذتين ، بينهما أضع منضدة الزينة الخاصة بي ، بينما سريرنا موضوع ورأسه على الحائط المقابل للنوافذ.

كانت الدمية رقيقة ولطيفة إلى حد لا يصدّق ، وبينما كنّا نستعد للنوم ، أخرج زوجي ذلك الحبل ذي العقد من جيبه ووضعه على المنضدة قائلاً إنه سيسأل أخي عنه عندما يراه.

وبعد مرور لحظاتٍ بعد نومنا ، استيقظت وشعرتُ أنني ما زلت أحلم من شدّة الصمت الذي خيّم على المكان ، كان صمتاً مطبقاً تخللّ جميع ثكنات الغرفة وزواياها ، رأيتُ زوجي حينها وهو يحتضر ، أصغيتُ في محاولةٍ مني لأن أسمع صوت تنفس زوجي ولكن بلا جدوى.

كنتُ خائفة جداً؛ لأنه كان هناك شيء مروع في هذا السكون ، شيء حي وشرير ، حاولت إيقاظ جون ولمسه ولكنني لم أستطع تحريك إصبع!

حاولت الصراخ والكلام ولكن دونما رجاء.

كانت الستائر مسدودةً بشكل جزئي ، يظهر ضوء خافت من خلفها وفجأة تلاشى كل شيء واجتاح الظلام

أرجاء المكان.

وبعد لحظات بدأ وهج أخضر بالظهور ، كان صادراً من غرفتنا ، يومض تارةً ويخفت تارةً أخرى ، كان أخضراً مثل ضوء اليراع ، أو مثل النظر إلى ضوء القمر خلال مياهٍ اخضوضرت لكثرة الطحالب ، ثم أصبح ثابتاً ولامعاً ثم تحركت الدمية!

بدأت تتفحص طفلي بذراعها ثم قفزت تجول غرفتي شبراً شبراً مثل طفل فضولي ، خلتُ أن ما حدث لا يعدو كونه حلماً غريباً ، ضحكت بصوت خافت مما جعل الدمية تنظر إلي مباشرةً ، شعرتُ بالدم يتجمد في عروقي عندما التقت نظراتنا ، لقد كانت عينا شيطان مريد تتوهج باللون الأحمر كما الحيوانات في الظلام.

لا أعرف كم من الوقت مرّ ونحن على هذا الحال ، جلست الدمية حينها على منضدة الزينة ، قدماها تتأرجح وتنظر إلي بشكل مباشر ، ثم قامت ببطء شديد برفع يديها خلف عنقها وأخرجت دبوساً كبيراً بدا كخنجر ثم قفزت عند قدمي زوجي ، حاولت الحركة والصراخ لإيقاظه لكن لم أستطع ذلك ، لقد تعذّر عليّ حتى البكاء.

قامت الدمية بعد ذلك بالتسلل إلى جسد زوجي ثم

سمعته يتلوى ، ينتحب ويتنهد بينما ما زلت لا أقوى على الحراك ، كنتُ أعلم في أعماقي بأنه يحتضر لكنني لم أتمكن من إنقاذه.

قفزت الدمية بعد ذلك خلال عتبة النافذة وذهبت بعيداً ، أفقت بعدها عن حلول الثانية من غيبوبتي أو أياً كان ما مررتُ به ، هرعتُ باتجاه زوجي لأجده جثة هامدة شديدة البرودة ، علمت حينها أنه مات.

أتضرّع إليك أيها الطبيب أن تخبرني هل ما مررتُ به هو حلم أم محض خيال؟ من المؤكد أنه ليس هناك دمية تستطيع القيام بجريمة قتل ، أيعقل أنني من قتلتهُ حينما كنتُ في غياهب الحُلُم...؟

براعة السيّدة مانديليب

تلّمستُ العذابَ جلياً في مُقلتيها لذا لم أقوَ على مُصارحتها بالحقيقة فأدليتُ تصريحي الطبيَّ قائلاً:

«لقد توفيَّ زوجكِ لأسبابٍ طبيعيةٍ تماماً إثرَ جلطةٍ دمويةٍ في الدماغ وليس لكِ إي علاقةٍ بما حدث ، أما فيما يخصُ الدمية فيبدو أنكِ تُعانين من هلوسات غير عاديةٍ».

تشبثت عيناها بتقاطيعِ وجهي فبدت وكأنها ستمنحُ روحها لتُصدقَ ما قُلت ، أعقبتُ:

«لقد بدى لكِ أن الحلم قد استغرقَ ساعاتٍ لكنهُ كان في الواقع شُبه فوري وحدث في لحظةٍ وجيزة بين الضوضاءِ والصحوة كما يجب أن تتذكري بأنَّ كثير من النساءِ ممن هُم في مثلِ حالِك يُعانينَ من أحلامِ اليقظة وعادةً ما تكونُ ذات طابعٍ مُزعج بل وتصلُ أحياناً إلى الهلوسة».

همّست وقالت:

«هذا صحيح ، كانت لدي كثيرٌ من الأحلامِ المروعة».

رأيتُ الشكَ يقطنُ كل مسامةٍ في وجهها ثم قالت

بعد لحظات مُترددة:

«لكن الدمُية قد اختفت».

أثار سؤالها غضبي فبقيتُ مُحتاراً لا أملكُ رداً كافٍ بيدَ أن ماكان تدارَك الموقف بسهولةٍ قائلاً:

«بالتأكيد ستختفي الدميةُ يا مولي ، لقد رميتها في مزلقِ النفايات بعد أن قلتِ لي إنهُ من الأفضلِ ألا تريها بعد الآن».

سألت بحدة:

أين وجدتها ؟ لقد بحثتُ عنها في كل مكان..»

أجاب:

«لقد وجدتها أسفل سرير الطفل بين الأغطية يبدو أن طفلكِ قد أسقطها أثناء نومهِ؛ لأنها مكسورة».

قالت بتردد:

«ربما انزلقت ، لا أعتقد أنني نظرتِ إلى هناك».

كنتُ أحرصُ على ألاّ تشك في وجودِ تواطؤ بيني وبينَ ما كان ، فقلتُ بحدّة:

«ما كان عليكَ أن تفعل ذلك ، ربما إذا رأت السيدةُ مولي الدمية ستعرف على الفور أنها كانت تحلم مما سيجنبُها مرارة الألم ، انزل وانظر ما إذا كان بإمكانك العثورُ على الدمية».

نظرَ إليَّ بحدة فأومأتُ برأسي آملاً أن يفهم

مبغاي ، عاد بعد بضعِ دقائق بيدهِ حزام صغير تتدلى منهُ نصفُ دزينة من الكتبِ المُصغرة مما جعل مولي تمتعضُ وتطلبُ إبعاد ذلك الشيء.

كسرتُ حاجزَ الصمتِ قائلاً:

«بعد أن اقتنعتِ بأن ما حدثَ كان مجرد حلم ، يجبُ عليكِ الآن مُغادرةُ هذا المكان بأسرعِ وقتٍ ممكن».

وافقت على الفور وودعت جُثمان زوجها بلحظةٍ تقشعرُ لها الأبدان ، دعوتُ بعدها مُتعهد دفن الموتى الذي كنتُ أعرفه ثم أجريتُ فحصاً أخيراً للجثة؛ لأتأكدَ من أن الثقب الدقيق لن يُلاحظ وأن شهادتي على سبب الوفاة لن تكون موضعَ شكٍ وهي أنهُ ماتَ بسبب جلطةٍ دماغية.

بعد أن تم أخذ الجثة جلستُ أنتظرُ عودة ماكان مُحاولاً تجريد ذهني من كل الأفكارِ المُسبقة وبدأتُ بالإقرار بأن السيدة مانديليب قد تمتلكُ بعض الحكمة التي يجهلها العلمُ الحديث.

رفضتُ أن أُسميها سحراً أو شعوذة ، حيث أن تلك الكلماتِ لا تعني شيئاً إذ ما تم تطبيقها عبرَ العصورِ على ظواهر طبيعية تماماً لم يفهم أسبابها العلمانيون فترى على سبيلِ المثال أن الضوءَ كان يُعدُّ سحراً بالنسبة للعديد من القبائل المُتخلفة ، لذا فأن السيدة

ماندليب لم تكُن ساحرة كما أعتقدها ريكوري بل أنها سيدةُ علمٍ غير معروف ولأنهُ علم ، فيجبُ أن يخضع لقوانين ثابتة.

إذا كانت أنشطة صانعة الدُمى تتحدى مبدأ السبب والنتيجة كما تصورتها ، فلا يزالُ يتعينُ عليهم الامتثال لقوانين السبب والنتيجة الخاصةِ بهم.

لم يكن هناك شيءٌ خارقٌ للطبيعة فيما حدث ، فقد كان الأمرُ لا يعدو كوني كالقبائل المتخلفة لجهلي بتلكَ القوانين حيثُ اعتقدتُ في بادئ الأمر أن الحبلَ ذا العُقد أو سلمَ الساحرة كان جزءاً أساسياً في تحريكِ الدُمى المزعومة حيثُ إن أحدها قد انزلق في جيب ريكوري قبل الهجوم الأول عليه بينما وجِدَ الآخرُ بجانبِ سرير الضحية ، بالإضافة إلى أنني ذهبتُ للنومِ تلك الليلة ممسكاً بأحدِ الحبال مُحاولاً قتلَ مريضي بينما رافق آخر الدمية التي قتلت زوجَ مولي.

ذلك يوضحُ أن الحبلَ كان جزءاً مهماً في عملية التحكمِ بالدمى بشرطِ أن تكونَ الدمية نسخةُ طبق الأصل من الضحية وهذا يعني أن الدمية التي طعنت ريكوري قد صُنعت على غرارِ بيترز وأن الدمية الممرضة التي رآها الحراس كانت على غرارٍ وبينما صُنعت الدمية التي قتلت زوجَ مولي على غرارِ أنيتا

الصغيرة (تلميذة تبلغ من العمر أحد عشرَ عاماً) ، مما يبدو أن شيئاً من أرواحِ المدعوين قد تم تحويلهُ إلى جوهرِ الشر وسُجنَ في هذهِ الدُمى.

قاطعَ ماكان خواطري بعودتهِ مُغتاظاً قائلاً إنه يظنُ أن الدميةَ أرادت اغتيال مولي مما جعلني أتساءلُ عن سببِ اختيارها على وجهِ الخصوص؟

أردفَ ماكان:

«ربما يعتقدُ شخصاً ما أنها تعرفُ الكثير ، أما ما أودُ إخباركَ بهِ الآن هو أن السيدة مانديليب تعرفُ بأنها مُراقبة ، يقولُ رجالنا إنها تخرجُ من المتجر عند الساعةِ الرابعة وتختفي عند زاويةٍ تقودُها إلى مخزنِ الدُمى بينما لا يستغرقُ الأمرُ طويلاً لتعودَ أبوابُ المتجرِ تستقبلُ الزبائن مرةً اخرى عند الساعةِ الثامنة حيثُ تظهرُ الفتاة داخل المتجر وتقومُ بفتحه».

أضفتُ قائلاً:

«ومع ذلك ليس لديكَ دليل حقيقي على أنها غادرت المتجر ، ربما لم تكُن الفتاة التي أعتقدَ رجالك أنهم رأوها هي على الإطلاق».

نظرَ إليَّ برثاء ثم قال:

«لقد خرجت في فترة ما بعد الظهر دون أن نتمكن من رصدها ، ما الذي يمنعها من فعلِ الشيء ذاته في

الليل».

لم يكُن هناك سببٌ لعدم تصديق ماكان.

أعقبتُ:

«الوقت الذي خرجت فيهِ في فترة ما بعد الظهر يتزامن مع الوقت الذي تركت فيهِ دمية بيترز بينما يتزامن الوقت الذي قضته في الليل مع وقت الهجومِ على ريكوري وموتِ زوجِ مولي».

ساد الصمتُ لهنيهة قلتُ بعدها ساخراً:

«أعتقدُ أنك تشيرُ إلى أنها اعتادت الخروج من المنزل عن طريقِ المدخنة بركوبِ عصى المكنسة».

أجاب بجدية:

«بالطبع لا أيها الطبيب بيدَ أن منازلهم قديمةٌ ورثة وأعتقدُ أنهُ ربما يكونُ هناك حفرةُ جرذٍ تمكنها من المرور وعلى أيةِ حال فأن رجالنا مُستمرين بالمُراقبة على قدم وساق».

أردفتُ بلا سابقِ إنذار:

«أنا ذاهبٌ للتحدثُ مع السيدة مانديليب يا ماكان وأريدكَ أن تأتيَّ معي».

قال:

«سأكونُ بجانبكَ أيها الطبيب وأنا على أهبةِ الاستعداد».

أجبتهُ:

«سأقابلُها بمفردي لكني أريدكَ أن تراقبها عن كثبٍ من الخارج».

لم يعجبهُ قولي وخضنا في جدالٍ وافقَ بعدهُ على مضض.

اتصلتُ بعدها بمساعدي برايل وعلمتُ ان ريكوري كان يتعافى بسرعةٍ مُذهلة تحدثتُ مع الأخيرِ هاتفياً وطلبتُ منهُ أن يبقى ماكان برفقتي بعد ظهرِ اليوم فوافق قائلاً بَلّغ ماكان بأن يتبعَ أوامري كما لو كانت أوامرَ رئيسهِ، تناولتُ بعدها غداءً ممتازاً وشهياً لأستعد لمقابلة السيدة مانديليب التي انطلقتُ لرؤيتها عندما دقت عقاربُ الساعةِ مُعلنةً حلول الساعةِ الثالثة.

السيدة مانديليب

وقفتُ حين بلوغي متجر الدمى عند النافذة لتجتاحني قشعريرةٌ ناتجةٌ عن اشمئزازٍ غير مألوف ، علِمتُ أن ماكان ورجاله كانوا على أهبة الاستعداد ، حيث تم تقسيمهم لمراقبة المتجر عن طريق المنازل المحيطة ، بينما كان بعضهم ينتقلون بين المارّة.

كان متجر الدمى حصناً منيعاً على الرغم من الضجيج الهادر للقطارات وضوضاء حركة المرور اللي هيمنت على المدينة بأكملها.

وقفتُ على عتبة باب المتجر مرتجفاً وشعرتُ كأنني أقف على باب عالمٍ مجهول ، لم يكن هناك سوى عددٌ قليل من الدمى تم عرضها بشكلٍ منفصل خلال نافذة المتجر ، كانت غريبةً بشكل كافٍ لجذب أعين الأطفال والراشدين على حدٍ سواء.

كان الضوء داخل المتجر خافتاً ، بانت منه فتاةٌ نحيلة تتحرك جيئةً وذهاباً ، يبدو أنها ابنة أخت السيّدة مانديليب بلا شك ، من المؤكد أنه لم يكن هنالك غرفة خفيّة أو مخبأً سريّاً نسبةً لحجم المتجر ، لذا فأن خيالات والترز في مذكراتها لم تكن حقيقية ،

ومع ذلك فقد جال في ذهني أن يكون المتجر ممتدّاً إلى ما وراء حدوده لكون منازل المنطقة جميعها مهترئة وقديمة.

توقفّت عن تأنيب نفسي وفتحت الباب بنفاد صبر واندفعتُ إلى الداخل.

استدارت الفتاة النحيلة صوبي حين دخولي، شرعتُ أدرسُ تقاطيعها، كان من الجليّ أنها تعاني من هستيريا ذات نوعٍ خاص حيث كان لها عينان زرقاوان شاحبتان، بدت وكأنها غمارُ بحرٍ لا قرار لهُ. بينما انتفخت حدقةُ العين بشكلٍ غير عادي.

كان لها جيدٌ نحيل وطويل، وبنان مستدق وشاحب، حيث شابكت بنانها بشكلٍ يؤكّد معاناتها من متلازمة لينيل لافاستين الهستيرية.

كان الخوف هو خادمها الأوفى على الرغم من أنها لم تبدُ خائفة مني على وجه الخصوص، أو بالأحرى، كان هنالك بعض الخوف العميق والغريب الذي كان ملفوفاً في جذور كيانها، مما قادها إلى الوهن واضعاف النشاط، وأوصلها إلى أسمى وأعقد مراحل الوجل، ألا وهو الخوف الروحيّ.

نظرتُ إلى شعرها فوجدتهُ بلونِ الرماد، مائلاً إلى اللون الفضيّ اللاّمع، بالضبط كذاك الذي شكّل

الحبال ذي العُقد!

تضاءل الغموض في عينيها الشاحبتين حين رأتني أحدّقُ في شعرها وحلّت محلّهُ اليقظة ، بدت لأوّل مرّة وكأنها على علم بنواياي.

قلتُ متظاهراً عدم النظر إليها:

«لقد جذبتني الدمى الموجودة على النافذة ، هل ليّ بواحدةٍ لحفيدي الصغير؟ لو كانت معروضةً للبيع بالتأكيد ، سأقوم بشرائها مهما كان ثمنها».

كان صوتها شاحباً كعينيها ، منخفض النبرة ، شبه هامس ، وغير مبالٍ ، أضفتُ متظاهراً بشيءٍ من الغضب:

«أريد أن أرى نماذج أخرى ، فأنّني أبحث عن أفضل شيءٍ موجود هنا»

أصبحت فجأة تتصرف بشكلٍ مختلف وتلاشت اللامبالاة على نحوٍ يدعو للقلق.

كانت عيناني تتربّص ماكان لأعلم إذا ما كان مستمراً بالمراقبة ، بينما لم يكن هناك أحداً داخل المتجر سواي والفتاة ، وباب صغير مغلق في أحد زوايا المتجر.

نشرت الفتاة بضع صناديق على المنضدة ثم نظرت إليّ وقالت في منتهى اللّطف:

«هذا كل ما لدينا ، أعتذر لو كنتَ تراني غير مبالية برغبتك لكن صانعة الدمى هنا هي خالتي ، هي من تهتم بشؤون الأطفال ولن ندع أحداً يغادرُ خائب الأمل».

لم يكن هذا الكلام قد أثار اهتمامي بقدر التغيير المفاجئ الذي أصاب الفتاة على حين غرّة.

لم يعُد صوتها ضعيفاً واجتاحتها حيوية غريبة ، كما لو أنها لم تكن الشخص الشاحب قبل لحظات ، ولم يعتريها الفتور يوماً.

قمتُ بتفحّص الدّمى واحدةً تلو الأخرى فقلتُ باهتمامٍ متصنّع:

«هلْ هذه الدمى هي أفضل ما لديكم؟ لدي مناسبة خاصة ، حيث أن حفيدتي ستبلغ من العمر سبعة أعوام وأبتغي هديةً مميزّة».

وبعد هنيهة ، فُتح الباب في الزاوية وعدتُ أشعر بذات النظرات الغريبة تحدّق فيّ ، فتلاشت الحيوية المفاجئة للفتاة وعاد الخوف يسكن تقاطيع وجهها.

على الرغم من أنني كنتُ مستعداً أن أستثني وصف والترز لصانعة الدمى ، إلا أن مظهرها أصابني بصدمة واضحة حيث كانت ضخمة بشكل مُلفت للنظر بوجهٍ عريض وعظام فكٍ بارزة ، بينما كانت شفتها العليا منتفخة مما أعطى مظهراً رجولياً إلى حدٍ ما على

النقيض من نهديها الأنثويين.

حين نظرتُ إلى عينيها نسيت بشاعة وجهها، ورحتُ أغوص في سوادهما، كأنهما فلكٌ زيّنتهُ النجوم لتضيف لمعانٍ آسر للنظر.

أشحت بناظري نحو يديها لأراها مُخبئة بالكامل في ثنايا ردائها الواسع.

عدتُ بعدها أنظرُ إلى عينيها، كان بداخلهما بريقٌ من الازدراء الساخر لتُعلمني أن الحيوية التي ظهرت في صوت الفتاة ما هي إلا صدى لذلك البريق.

قالت صانعة الدمى بتهكم واهتمام:

.«أرى أن ما أظهرته ابنة أختي لم ينَل رضاك»

استجمعت شتات عقلي وأجبت:

.«كلهنّ جميلات يا سيّدتي»

أعقبت:

.«سيدة ماندليب»

نظرت صوبها لثوانٍ ثمّ أردفت:

«لدي حفيدة صغيرة وأرغب بإهدائها شيئاً مميزاً وثميناً في عيد مولدها السابع، كل ما رأيته كان جميلاً بشكلٍ لا يصدّق إلا أنني أبحث عن شيء مختلف».

صمتت للحظةٍ ثم طلبت أن تعرف مع من تتعامل هي، كنتُ قد أعددتُ نفسي بحمل هويّة شخصية

لطبيب متوفى منذ زمنٍ بعيد ، نظرت إليها باهتمام ثم قالت:

..أنت طبيب محترف إذاً ، وبعد أن عرفنا بعضنا سآخذك معي وأُريك أفضل ما لديّ»

قادتني عبر الباب إلى ممرٍ واسعٍ ومُعتم ، لمست ذراعي فشعرتُ بوخزٍ غريب اجتاح جسدي بالكامل ، ثم توقفت عند بابٍ آخر واستدارت نحوي قائلةً:

«إنه هنا ، هنا أبذلُ قصارى جهدي وستجد أفضل ما لديّ»

ابتسمت مرة أخرى وفتحت الباب ، بينما توقفت قرب العتبة أتفحّص المكان بشكلٍ سريع.

لم تكن الغرفة ساحرة كما وصفتها والترز في مذكراتها بيد أنها كانت أكبر مما يتوقعه المرء إلى حدٍ ما ، لم ارَ أثراً للألواح القديمة والمنسوجات الرائعة ، أو حتى تلك المرآة المستديرة التي كانت بمثابة نصف كرة أرضية مصنوعة من المياه الزُلال!

لقد كان كل شيءٍ مألوفاً وعادياً ، أنَى لها أن تصف المكان وكأنه فردوس؟

لقد كانت هناك ستائر مسحوبة يتخللها الضوء عن طريق نافذة تطلّ على باحةٍ صغيرة ومقفرّة بينما كان السقف والجدران مصنوع من الخشب الملون بالإضافة

إلى خزانات صغيرة مُدمجة بأبواب خشبية عُلّقت فوقها مرآة مستديرة عادية.

كانت هناك أيضاً مدفأة من النوع الذي يوجد في كل منزل في نيويورك تقريباً ، كما أن اللوح الباروني مألوف للنظر بالكامل ، مليء بملابس خاصة بالدمى في مراحل مختلفة من الإنجاز.

اكتشفت أن لوالترز خيالاً نشطاً ، بيد أن ما جعل قلقي يزداد وينمو هو أنها لم تبالغ في وصف صانعة الدمى ولا خصوصيات ابنة أختها.

قطعت السيدة مانديليب سلسلة أفكاري قائلة:

«يبدو أن غرفتي تهمّك»

أجبتُ بسرعة:

«أي غرفة يخلقها أي فنان حقيقي هي موضع اهتمام ، وأنت فنانة حقيقية سيدتي مانديليب»

ردّت بتهكّم واضح:

«كيف تعرف ذلك؟»

أدركت أن ما قلتهُ كان زلّة لسان فقلتُ وأنا أحاول إصلاح الموقف:

«أنا من محبي الفن ، وقد رأيتُ بعض الدمى الخاصة بك ، لا يتطلّب الأمر معرضاً للصور حتى يدرك المرء أن رافائيل ، على سبيل المثال ، سيداً مرموقاً ، صورة

واحدة تكفي».

ابتسمت بطريقة ودّية وأغلقت الباب ثم طلبت مني الاسترخاء على كرسي بجانب طاولة ريثما تُكمل خياطة فستانٍ لدمية طلبها صبيٌ صغير وأخبرتني أن الأمر لن يستغرق طويلاً.

استلقيتُ على الكرسي لأدرك أنني كنتُ مرهقاً بشدّة ثم رحتُ في نومٍ عميق لأجد حين استيقاظي أنّها تحدّق فيّ بعينيها الساحرتين ثم قلتُ بلطف:

«من الجيد أن يأتي المرء إلى هنا حين يكونُ بحاجة للاسترخاء، فإن هذه الغرفة يسودها السلام وأنا مُرهقٌ جداً».

التقطت ثوباً صغيراً من الطاولة وبدأت في الخياطة حيث ضغطت أصابع بيضاء طويلة على الإبرة بينما كانت اليد الأخرى تدور وتحرك الثوب الصغير.

كم كانت حركة تلك الأيدي الطويلة البيضاء رائعة، مثل الإيقاع، ثم قالت بنبرةٍ منخفضة:

«لا يوجد شيء هنا سوى السلام والسكينة».

أشحتُ عيناي على مضض من التحديق بتلك الرقصات البطيئة لتلك البنان، والنسج الحساس الذي كان يجعل أصابعها تتحرك بشكلٍ إيقاعي وراحة تامة بينما تشبّثت عينها المليئة بالسلام بوجهي.

كانت تدندن بلحنٍ هادئ مما جعلني أفكر في قرارة نفسي أن أحصل على قسطٍ من الراحة ، فلا ضير من الاسترخاء قبل الشروع بعمل جهدٍ جهيد.

تسلل النوم إلى تكنات عقلي المرهق وبدأتُ أخوض غمار سكونه وأسبح في فضاءٍ من الراحة التامّة ، على الرغم من أنني أحسستُ أن عقلي رفض الاسترخاء وكان على أعتاب اليقظة الكاملة لأرى الغرفة كما رأتها والترزا!!

بدت جليّة أمام عيني ، واسعةً ومليئة بالضوء الخافت ، تلك المنسوجات والألواح الخشبية المنحوتة والمرآة المستديرة التي بدت وكأنها نصف كرة أرضية من المياه الزُّلال ، تتمايل خلفها صور المنحوتات وتكمن حول إطارها انعكاسات اللون الأخضر كما لو كانت أعشابٌ كثّة تتجمع حول بركةٍ صافية!

وبعد أن نظرتُ إليها ، وجدتها تنظر إليّ بحزنٍ وغرابة!

يا إلهي! متى تركت مكانها وكم من الوقت استغرقته نائماً وما الذي منعها من إكمال عملها في خياطة ملابس الدمية؟

حاولتُ التحدّث لكن دون جدوى ، كان يجب أن أكون متيقظاً تماماً وفي حالة تأهّب إلا أنني كنتُ محاصراً

بصوتها وعينيها ونسج يديها مما أوحى لي أنني كنتُ متعباً جداً وجلّ مبغاي أن أغيب في وسنٍ عميق.

بدأتُ اتساءلُ عمّا فعلته بي أثناء نومي ولِمَ لَمْ يعُد بإمكاني الحِراك؟

كنتُ لا أملكُ أمراً على جسدي ، مددتُ يدي نحوها فسقطت جرّاء ضعف إرادتي مما جعلها تضحك متوجّهةً إلى الخزانات ، تبعتها عيني بلا حولٍ ولا قوة.

ضغطت السيدة مانديليب على زرٍ فانزلقت أبواب الخزانات إلى الأسفل.

كانت تقطن داخل إحدى الخزانات دمية جميلة إلى حدٍ لا يصدّق ، كانت دمية طفلة صغيرة حلوة الوجه والمبسم ، نظرتُ إليها فشعرت بخدرٍ في مُهجتي حيث كانت في يديها الصغيرتين المشدودتين إحدى دبابيس الخنجر ، علمتُ على الفور أنها دمية ابن مولي ، أعقبت السيدة مانديليب:

«هذه واحدة من أفضل الدمى لديّ ، لكنها بحاجة لبعض التصليح فقد نسيت وضع كتبها المدرسية ، هل ترغب بها لحفيدتك؟».

أطلقت بعد قولها المزعوم ضحكاتٍ مُتقطعة شريرة ، أدركتُ عندها أن ريكوري كان محقاً عندما قال إن هذه المرأة يجبُ أن تُقتل.

تجمدّ الدم في عروقي حين فتحت خزانةُ أخرى لتمتثل دميةُ والترز أمام عينيٍ!

كانت الدمية مثالية لدرجة أنني خلتها على قيد الحياة، لقد كانت كفتاة ترتدي زي ممرضة بشعرٍ أسود بلا قبعة تعتلي رأسها عبارة تقول:

«الضحيّة المُحترقة».

تمتمت صانعةُ الدّمى بصوتٍ مُرٍ كالعلقم قائلة:

«هذه الدمية لم تُحسن التصّرف، وأنا أعاقب الدّمى غير المطيعة»

جذبت الدمية ووضعتها بشكل مستقيم وسألتني فيما إذا كنتُ أرغب بها لحفيدتي، ثم أضافت أنّها ليست للبيع لأن لديها دروساً يجب أن تتعلمها قبل أن تغادر المتجر مرةً أخرى.

تغير صوتها وأصبح مشحوناً بالخطر ثم أردفت:

«استمع إلي أيها الطبيب لويل، أتظنّ حقاً أنني لا أعرفك؟

لقد عرفت ماهيتك منذ الوهلة الأولى وأعتقد أنك أيضاً بحاجةٍ إلى أن تتلقن درساً أيها الأحمق!

تتظاهر أنّك تشفي الأذهان وأنت لست على قدرٍ من العلم بها، وتدّعي أن العقل ما هو إلا آلة من لحم ودم بينما أنت في الواقع لا تعرف ماهيته إطلاقاً!

أنت لا تعترف بأي شيءٍ لا يخضع لأنابيب الاختبار خاصتك بل وتعرف الحياة على أنها مختبر كيميائي ، ومع ذلك فقد تجرأت أنت وهذا الوحشي ريكوري على محاولة إعاقتي وتطويقي بالجواسيس بل وحاولوا تهديدي لكن لا رجاء مما تفعلون»..!

أشارت إليّ بالبنان فشعرتُ بالرخاوة في حلقي مما يعني أن بإمكاني الحديث مجدداً ، هددتها بأنه سيتم إعدامها وستلقى جزاءها العادل لكنها قابلت كلامي بضحكة ساخرة وقالت:

«من سيصدقك أيها الأحمق؟ الجهل الذي عززّه علمك هو درعي وظلام عدم إيماني وحصني المنيع ، اذهب والهو بآلاتك الغبية أيها الأحمق فلم يعد بإمكانك إنقاذ ريكوري ، هو ملكي الآن!

«اجمع جواسيسك واتركوني وشأني»..!

دفعتني باتجاه الباب بينما تشبثت عينا دمية والترز بعيني وشعرتُ أنها تتضرّع أن أخرجها من هذا المكان.

مشيتُ عبر الممر إلى داخل المتجر فنظرت إليّ الفتاة بوجلٍ وشعرتُ أن يداً تضغط عليّ من الخلف فخرجتُ مسرعاً نحو الشارع وكنتُ هنا قد سمعتُ بالفعل ، تلك القهقهات الشريرة لصانعة الدمى العجوز!

هجومُ صانعة الدّمى

عادت إليّ الإرادة وقوة الحركة في اللحظة التي خرجتُ فيها إلى الشارع حيثُ اجتاحتني موجةُ غضبٍ مُفاجئة، استدرتُ لدخولِ المتجر مرةً أخرى لكنني اصطدمت بجدارٍ غير مرئي منعني من الدخول بل وحتى شلَّ يدي فلم أتمكن من لمس الباب، كان الأمرُ كما لو أن إرادتي شُلَّت في تلك اللحظة أو بالأحرى أن ساقيّ وذراعيّ رفضتا إطاعة إرادتي أدركتُ أخيراً ما يحدثُ بعد التنويم المغناطيسي وأدركت أنه من جعلني ساكناً أمام صانعة الدُمى وأرسلني مثل روبوت خارج عرينها.

رأيتُ ماكان قادماً نحوي وخطرت لي فكرةٌ مجنونةٌ لوهلة أن آمرهُ بدخولِ المتجر وقتل السيدة ماندليب برصاصة ولكن سرعان ما أخبرني بفطرته السليمة أنهُ لا يمكننا تبريرُ جريمة قتل مُضيفاً أنهُ كان قلقاً عليَّ وأوشك على اقتحام المتجر فأخبرتهُ بأنني أريدُ العودة إلى مخدعي ليس إلا وأنني سأخبرهُ لاحقاً بما حدثَ هناك.

ما أردتهُ في الواقع هو استعادة رباطة جأشي حيثُ

بدا عقلي كعجوزٍ أعمى يتلمسُ طريقهُ نحو الملموس، كان الأمرُ كما لو كانت أفكاري مُتشابكة في أنسجةِ عنكبوت.

ركبنا السيارة وسرنا بصمتٍ مُطبق لبضعِ دقائق ثم تغلبَ فضول ماكان على تلك السكينة وسأل عن رأيي في السيدة مانديليب.

بحلولِ هذا الوقت كنتُ قد توصلتُ إلى قرار حيث شعرتُ بموجةٍ كبيرةٍ من الكراهيةِ تجتاحُ ثكناتِ عقلي فلم يدر شيء في ذهني ما خلا القتل وأن صانعة الدُمى الموسومة قد جاءت في الحقيقةِ من أقاصي الجحيم الذي آمن بهِ ريكوري.

أمرتُ ماكان ألّا يدعَ فتاتها تفلتُ من قبضتهِ وأخبرتهُ أن يُكثفَ الحراسة حول المتجر وأن يتبع ابنة أختها حالَ خروجها من المكان وأن يجلبها إلى منزلي بأقصى درجات الهدوء.

خِلتُ أن هذا هو الحلُ الوحيد الذي سيمكننا من وضعِ أيدينا على مانديليب الشريرة.

قد يكونُ لديها خدمٌ آخرون غيرُ مرئيين بيدَ أنَّ جُلَّ ما يدورُ في ذهني هو حرمانها من خدمها المرئيين.

تناقشنا بعد ذلك عن حالِ ريكوري وما إذا كان يجبُ علينا إخبارهُ بما حدث وما سيحدث قبل الشروع

بأي خطوة.

توقفنا أمام المنزل، كررتُ تعليماتي مرةً أخرى أمام ماكان فأومأ الأخيرُ برأسهِ موافقاً.

دخلتُ المنزل ووجدتُ رسالةً من برايل يقول فيها إنه لن يأتي لرؤيتي إلا بعدً العشاء.

علمتُ أن ريكوري كان نائماً، وأنه كان يستعيدُ قوتهُ بسرعةٍ مُذهلة فطلبتُ من الممرضةِ أن تخبرهُ حين استيقاظهِ بأنني سأزورهُ بعد تناولِ العشاء.

استلقيتُ محاولاً أخذَ قسطٍ من النوم، لكنهُ أبى أن يكونَ رفيقَ وحدتي حيثُ كان وجهُ صانعة الدُمى يمثلُ أمامي كل ما أرخيتُ جفني مُستسلماً لغفوة مما دفعني إلى أن أكون مُتيقظاً بشدة.

نهضتُ عند السابعة، وتناولتُ عشاءً فاخراً، وشربتُ عمداً ضعف كمية النبيذ المسموح بها، ثم تبعتُها بفنجانٍ قهوةٍ مُركز شعرتُ عُقبها بتحسنٍ واضح مكنني من صياغة القصة التي كنتُ أنوي سردها.

أدركتُ أنني لا أستطيعُ إبلاغ الآخرين بما حدث تفصيلاً حتى لو رغبتُ بذلك كان هذا بأمرٍ من صانعة الدُمى وتأثيراً بعدياً للتنويم المغناطيسي حيثُ أخالُ أنها نفسُ الموانع التي جعلتني عاجزاً أمامها ودفعتني للخروج من متجرها مثل الروبوت ومنعتني من الولوج

مرةً أخرى ، كما أنها سيطرت على جزءٍ من عقلي يرفضُ الحديث عن الدمية ذات الوجه الملائكي والخنجر ذي الغمد الذي يتخللُ ملابسها بالإضافةِ إلى اعترافِ صانعةِ الدُمى الضمني بأنها كانت مسؤولة عن الوفيات التي قادتنا إليها في بادئ الأمر.

جعلني هذا الإدراك أشعرُ بتحسن حيثُ أنني كنتُ وأخيراً أتلمسُ شيئاً منطقياً ليس فيهِ شعوذة أو قوة مُظلمة ، شيءٌ لهُ علاقةٌ كاملةٌ بمجالِ عملي حيثُ أنني فعلتُ الشيء ذاته مع مرضايَّ مرات عديدة وأعدتُ عقولهم إلى طبيعتها من خلال نفس الاقتراحات اللاحقة للتنويم المغناطيسي كما كانت لديَّ طريقة يمكنني من خلالها غسلُ ذهني من مخلفاتِ صانعة الدُمى لكنني قررت بعناد عدم فعلِ ذلك؛ لأنهُ سيكونُ اعترافاً بخوفي من السيدة مانديليب.

لقد كرهتها لكنني لم أهابها ، جاء برايل بعدها وتمكنتُ من مقابلته بهدوء ، بالكادِ استقبلتهُ عندما اتصلت ممرضةُ ريكوري لتقول إن مريضها كان مستيقظاً ومتشوقاً لرؤيتي ، أشدتُ بحسنِ حظ برايل وطلبتُ منه مرافقتي ليسمع عن قصة مقابلتي مع السيدة مانديليب أدهشهُ الأمر وانهالَ عليَّ بأسئلةٍ لا قرار لها.

وصلنا أخيراً إلى مُلحق ريكوري لنجدهُ جالساً مُترقباً مجيئنا ، أجريتُ فحصاً موجزاً فوجدتهُ على خير ما يرام وهمستُ له قائلاً إنني رأيتُ الساحرة وأن لدي كثير مما سأخبره به ، وطلبتُ منهُ إخراج حراسه من الغرفة كما طلبتُ من الممرضة الخروج أيضاً.

بدأتُ بسردِ أحداث اليوم بعد خروج الممرضة والحرّاس بدءاً من استدعاء ماكان لي في شقّة مولي وحتى زيارتي لمتجر الدمى.

تمتم ريكوري معلقاً على قصة مولي ، قائلاً إنها ستنتقم لما حدث عاجلاً أم آجلاً ، لم آبه لما قاله بقدر ما كان تركيزي منصبّاً على إتمام روايتي غير المكتملة بشأن السيدة مانديليب ، كما أخبرته بشأن أوامري المتوجهّة لماكان فوافقني الرأي فوراً.

كنتُ مطمئنّاً لكوني سأنام الليلة بسلام حتى يستطيع ماكان جلب ابنة أخت صانعة الدمى على أقل تقدير.

لم يصدّق ريكوري أو برايل كلامي بشأن ما دار بيني وبين السيدة مانديليب وشعر بأني أُخفي عليه تفاصيلاً أخرى بقيت طي الكتمان.

قمتُ لأستحم وأذهب إلى فراشي في تمام التاسعة والنصف متيقّناً أنه لن يحدث شيءٌ قبل الحادية عشر

صباحاً.

طلبَ برايل أن يلازمني لأكون في مأمنٍ لكنني رفضت رفضاً قاطعاً؛ لأن بقائه بالقرب مني يعني فيضٌ من الأسئلة التي لا تنتهي.

طلب مني بعد ذلك أن أبقى تحت مراقبة الحراس مما أثار غضبي، ففي النهاية أنا لستُ طفلاً ولديّ القدرة الكاملة على الاعتناء بنفسي كما أنني لستُ مضطّراً للعيش خلف ستار مسلحّين، كنتُ آسفاً لأسلوبي الفضّ لكن ذلك كان أفضل شيء يمكن فعلهُ في مثل تلك الظروف.

طلبتُ من الممرضة والحراس ملازمة ريكوري طوال الليل؛ لأنّي لم ارغب بالمخاطرة بسلامة ريكوري تحت أي ظرف كما أنني لم أخبرهُ بتهديد صانعة الدمى المباشر له.

طلب مني برايل بعد ذلك أن أُبقي باب مهجعي مفتوحاً تحسّباً لأي طارئ.

ما زلتُ أشعر بالغضب لذلك بيد أني وافقتُ مضطرّاً ودخلتُ غرفة نومي وأغلقتُ الباب خلفي لكن لم أقفله.

كنتُ متعباً جداً فبدأت بخلع ملابسي، وهنا كانت الصدمة!

لقد وجدتُ دبوساً صغيراً على جانب القميص

الأيسر ، فوق قلبي مباشرةً!

فتحتُ القميص ونظرتُ إلى الجانب السفلي لأجد ذات الحبل ذو العُقد ولكن بعقدةٍ واحدة!

تقدّمت نحو الباب محاولاً إيجاد عود ثقاب لأحرق الحبل ولكني لم أغرب بإخبار برايل بالأمر؛ لأنني مُضنى ولا اريدُ سوى الراحة ، فرميتُ به على المنضدة وواصلتُ خلع ملابسي.

كانت غرفةُ نومي كبيرةً ذات سقفٍ عالٍ في الطابق الثاني من منزلي ، تقعُ في الجزء الخلفي من المنزل إلى جوار مكتبي.

توجد فيها نافذتين تطلّان على حديقةٍ صغيرة تحتوي على شجرةِ كمثرى قديمة ، تُزهر كل ربيع رافعةً أغصانها النظّرة نحو الشمس.

تحتوي غرفتي على ثريا ضخمة من الطراز القديم ، مغطاة بالكامل بالمناشير المصنوعة من الزجاج المقطّع على شكل دوائرٍ ست ، ترتفع منها حاملات المصابيح ، حيث إنها نسخة مصغّرة طبق الأصل عن إحدى الثريات الاستعمارية الجميلة في قاعة الاستقلال في فيلادلفيا ، حيث إنني لم أسمح بإزالتها حين شرائي المنزل ، أو حتى توصيلها بأسلاكٍ للمصابيح الكهربائية.

يقبعُ سريري في نهاية الغرفة ، على جانبه الأيسر تقع النوافذ المؤطرة التي ينعكس عليها الضوء الخافت الصادر من الخارج ، كما ينعكس على زجاج الثريا مما يعطي جواً هادئاً ومناسباً تماماً للنوم.

يوجد خلف سفحِ سريري مفتاحُ التحكّم الخاص بالأضواء ، كما يوجد في جانبِ الغرفة مدفأةٌ قديمةٌ جوانبها من رُخامٍ منحوت وبها رف عريض في الأعلى.

يجب وضع هذا الترتيب في الاعتبار ليُصبح تصّور الأحداث القادمة واضحاً.

مزجتُ لنفسي مهدئاً وأطفأتُ الأنوار وغرقتُ في نومٍ عميق.

وبعد لحظاتٍ لم أشعر بثُقلها ، استيقظت!

نظرتُ حولي فاستغربتُ مجيئي إلى مكانٍ كهذا ، كنتُ أقفُ داخل حفرةٍ دائريةٍ ضحلة ومبطنة بعشبٍ أرجواني مُزهر.

كانت الحفرةُ وسط مرجٍ دائريٍ مستوٍ ، فيه أشجارٌ زمرديةٌ وثمار قرمزية اللون ، ذات أغصان متدليّة ومغطّاة بأوراق شبيهة بالسرخس.

أحسستُ أن الأشجار لها أرواحٌ يقظة ، تراقبني بعينٍ ساهرة شريرة ، لكن كيف جئتُ إلى هنا؟

نظرتُ إلى نفسي ، كنتُ أرتدي بجامتي الزرقاء

ذاتها التي نمتُ بها ، رأيتُ بعد ذلك ثلاث مساراتٍ خرجت من الحفرة الضحلة وامتدّت نحو الغابة ، مما يعني أنهُ عليّ أن أسلك أحدها ، ومن المهم للغاية أن أختار الطريق الصحيح.

لم يطل الأمر سوى لحظات لتبدأ الحفرة بالانكماش تحت قدمي مما اضطرني للقفز إلى اليمين ، فكان عليّ أن أسلك ذلك الطريق.

بدأتُ أسيرُ ببطء شديد ، ثم ركضتُ على طول المسار دونما توقّف.

لم أكن أعرف إلامَ أرومُ وأين أذهب ، كان جلّ ما يدور في ذهني هو ما سيؤولُ إليه حالي في نهاية المطاف.

توقفتُ مؤقتاً ونظرتُ إلى الأشجار ، ثم إلى السماء ، شعرتُ بنظراتٍ شريرة تحدّق نحوي وبانَ في السماء جُرمان سوداوان متوّهجان!

ثم بدا لي أنها لم تكن أجراماً بل كانت عيون!

إلهي! عينا صانعة الدمى تقدحان بالشرّ!

اقتربت تلك العينات مني وشعرتُ بيديها ذات الأصابع المُستدقّة تمتدّ نحوي يتبعها دوي ضحكة السيدة مانديليب المليئة بالشر.

استيقظت ، أو بدى لي وكأنني أستيقظ جالساً في

سريري.

كنتُ أتعرق وكان قلبي ينبضُ بسرعةٍ هزَّت جسدي ، وبعد هنيهة لفتت نظري حركةٌ عند إحدى النوافذ ، أردتُ الحراكَ لأرى ما الخطب ولكن عبثاً أحاول.

بدأ وهجٌ أخضر خافت يملأ الغرفة ، ثم ظهرَ وجهٌ صغيرٌ خلالَ النافذة ، كان وجهُ دُمية!

شعرتُ بقلبي بين قدمي واعترى اليأسُ جسدي المُنهك وتيقنتُ أنَّ ماكان قد فشل وقد حانت النهاية.

نظرت الدميةُ إليَّ بوجهٍ مُبتسم ، حليق وناعم بدا أن لها وجهُ رجلٍ أربعيني بأنفٍ مُستدق ، وفمٍ عريضٍ ، وشفتينِ رفيعتين ، كما أنَّ لها عينانِ مُتقاربتانِ تختبئان تحت حواجبَ كثَّة وتلمعانِ مثل ياقوتٍ أحمر.

تسللتْ من عتبة النافذة ودخلت الغرفة كانت ترتدي لباساً ضيقاً وسترة بهلواني ثم أشارت إلى النافذة حيثُ يوجد وجهٌ صغيرٌ آخر يُحدقُ هناك ، وجهُ رجلٍ في الستين من العمر لديهِ شعيراتٌ جانبيةٌ صغيرة حدّقت في وجهي بنفس التعبير الذي يعتلي وجهَ مصرفي حينَ يتقدمُ لهُ شخصٌ يكرههُ طالباً الحصولَ على قرض.

لقد وجدتُ الفكرة مُسلية بشكلٍ غريب ، ثم زالَ فجأةً شعورَ المرح حينَ خطرت في ذهني أنَّ الدميتين الماثلتانِ أمامي هما دُميتا المصرفيّ والبهلوانيّ اللذانِ

عانا من الموت المجهول.

أشحتُ بناظريَّ نحو النافذةِ مرةً أخرى لأجدَ دُميةً لامرأةٍ بنفس عمرِ دمية المصرفيّ وتلبسُ فستان سهرةٍ راقٍ ، إلهي ! إنها دُمية العانس المُتوفاة.

فكرتُ بيأسٍ شديدٍ أن برايل موجودٌ على الجانب الآخر من باب غرفتي وأني إذا تمكنتُ من إصدارِ صوتٍ مسموعٍ فسيهرعُ لمساعدتي.

توقفت الدُمى وبدا أنها تتشاور ثم استأنفوا مسيرتهم نحو سريري بينما قفزت دمية البهلواني واستقرت على الثريا.

رأيتُ مناشير الثريا تتأرجحُ في سكونٍ مَقيت ثم سقطَ عددٌ منها وأصدرت صوتاً مُدوٍ كسرَ صمتَ المكان.

سمعتُ برايل يجري نحو الباب فتحها على مصراعيها ووقفَ على العتبة ، كان بإمكاني رؤيتهُ بوضوحٍ في الوهج الأخضر لكنني علمتُ أنهُ لا يستطيع الرؤيا حيث كانت الغرفة مُظلمة بالنسبة له.

بكى وصرخَ باسمي عدة مراتٍ ، حاولتُ تحذيرهُ ولكن دونما رجاء ، تلمس طريقهُ خلال الظلام ليستطيع إنارة الأضواء ثم توقفَ للحظاتٍ أسفل الثريا مُباشرةً ، أعتقد أنه شعر بوجودِ الدُمى نظرَ نحو الأعلى ليجد

أن دُمية البهلواني تتأرجح فوقه بيدٍ واحدة ثم سحبت خنجرها من غمدها بحركةٍ سريعة وأنقضت على برايل لتطعنه بشراسةٍ في حلقه صرخَ برايل صرخةً واحدة ثم تحولت إلى تنهدٍ مُروع ثم رأيتُ الثريا تتأرجحُ لتسقط مع تحطمِ هزِّ المنزل على برايل وفجأة اختفى الوهجُ الأخضر وهربت الدُمى مثل فئرانٍ تفرُ من مصيدة.

زالَ الشللُ مني فأسرعتُ بإضاءة الأنوار لأرى برايل مُلقى على الارض وريكوري واقفاً عند الباب وعلى جانبيهِ حراسةُ حاملينَ بنادقهم ثم بدأوا بإطلاق النار على النافذة.

انحنيتُ على برايل ، كانت الروحُ قد فارقته وأمسى جثةً هامدةً حيث سقطت الثريا على رأسهِ وسحقت الجمجمة على الرغمِ من أنه كان يحتضرُ قبل سقوطها نتيجة انقطاع الشريان السباتي إثر طعنةِ الدمية التي قتلتهُ وفرت هاربة.

ذات الوجه الشاحب

وقفتُ وقلتُ في قرارة نفسي بمرارة لقد كان ريكوري على حق فقد تغلبَ خدامها على أتباعي نظرتُ إلى ريكوري فوجدتهُ مُحدقاً في برايل بوجهٍ مِلؤهُ الشفقة أما بالنسبة لماكان فقد وجه نظراته إليَّ بلوعة ، إنهُ ذكيٌ ومخلصٌ في ذات الوقت.

اعترفتُ لنفسي بأنني لو سردتُ ما حدثَ معي أثناء زيارتي المشؤومة إلى متجر الدمى بصراحة فأن نهاية الدكتور برايل لم تكن لتؤول إلى هذا الحال لكنني أبيتُ الحديث امتثالاً لأوامر كبريائي اللعين لقد أصابني الندمُ والحزنُ والغضبُ المغلفُ بالعجزِ وفكرت بأنني لو قبلتُ عرضَ برايل وريكوري بمراقبتي أثناء نومي فلا يمكن أن يحدث ما حدث.

نظرتُ نحو مكتبي فرأيتُ ممرضة ريكوري تتهامس مع الخدم الآخرين من الملحق والذين جذبهم ضوضاء سقوط الثريا ، أبلغتُ الممرضة بأن برايل كان واقفاً يتحدثُ إليَّ حين سقطت الثريا وهشمت رأسهُ وأردتهُ قتيلاً وطلبتُ منها تسريحَ الخدمِ إلى منازلهم ومن ثمَّ تنظيف آثار الدم وترك الثريا كما هي.

التفتُ بعد ذلك إلى مُسلحيّ ريكوري وسألتهم عمّا رأوا حينما أطلقوا النار فتباينت إجاباتهم بين قردةٍ واقزام ثم وبأسفٍ شديد أحضرتُ غطاء السرير وطلبت من رجال ريكوري رفع برايل ولفهِ بهذا الغطاء.

وبالفعلِ انتشل الرجال الطبيبَ برايل من بين براثنِ حطام الزجاج الذي قطع وجههُ ورقبتهُ بسبب المناشير المكسورة مما خلَّفَ جروحاً عميقة.

التفتَ إليَّ ريكوري بعد ذلك وسألني عمَّا أنوي فعله ، كان كل ما شعرتُ أنني قادرٌ على فعلهِ هو البكاءُ ، لكنني أخبرتهُ بأنني سأبلغُ الشرطة على الفور وأغلق القضية بدون ذكرٍ مُسبقٍ للدمى؛ لأن سقوط الثريا هو سببٌ كافٍ لوفاته.

لم أستطع تمالك نفسي فبكيتُ لأول مرةٍ منذ سنواتٍ عديدة وشعرت بأنني المُلامُ على ما حدث فقد قتل واحدٌ من أعز المساعدين لي نتيجة غرور رجلٍ عجوز.

عزّاني برايل برفقٍ كامرأة قائلاً إن سبب ما حدث هو عدم إيماني الطبيعي حيث وجدت الساحرة فرصتها وضربت ضربتها.

وضع يديه على كتفي وطلب مني عدم إخطار الشرطة لبعض الوقت ريثما يعودُ ماكان وبعدها سنقتل

الساحرة وفتاتها.

أعطاني ريكوري بعض الماء شربتهُ بنهمٍ ثم سمعنا طرقاً على بابِ مكتبي وسمعنا صوت أحد رجال ريكوري فجاء ماكان قائلاً إنهُ قد تمكن من القبض على فتاة الساحرة.

وقعت عيناهُ على جثةِ برايل فنظرَ إليها بازدراءٍ مُتسائلاً عمَّا حدث.

وحينما أخبرناهُ بأمر الدُمى اشتاطَ غيظاً وقال إنَّ ابنة أخت صانعة الدمى مُقيدةٌ في السيارة.

عند النظر إلى ماكان لمستُ فيهِ مزيجاً من الشعور بالندم والعار فربتُّ على كتفهِ وطلبتُ منه إخباري بكيفية إمساكهِ بالفتاة ذات الوجه الشاحب.

بدأ يسرد علينا ما حدث بالتفصيل المُمل ولكن ما لفتَّ انتباهي هو رؤيتها تحملُ حقيبتين كبيرتين وتتوجهُ صوبَ منزلي حين أمسكها ماكان بعد مراقبتها لدقائق معدودة ليجد أن حملها خالٍ تماماً.

سألتهُ كم من الوقتِ مرَّ بين إمساكهِ للفتاة ووصولهِ إلى هنا فكان خمسة عشر دقيقة ، إلهي ! لقد امسكها في اللحظة التي قُتل فيها برايل حيث يبدو أنها كانت تنتظرُ عودة الدمى.

أمسكَ ريكوري بيد ماكان وعصرها فاستعدَ الأخيرُ

لتنفيذ أوامرَ لم يكن ليخطئ مغزاها ، فهمت أنه أمر بقتل الفتاة فمنعتهُ موضحاً أن لا حول ولا قوة لها بخلافِ ما تطلبه منها صانعة الدمى وأنها تخضعُ للتنويم المغناطيسي طوال الوقت حيث لا يمكنني أن أنسى محاولتها إنقاذ والترز.

واقترحتُ أن أنومها مغناطيسياً وأستجوبها عن تفاصيلِ ما يحدث في متجر الدُمى مما سيمكننا من حل القضية.

وافقني ريكوري على مضض مُشيراً إلى أن كل لحظةٍ تبقى فيها هذهِ الفتاة على قيد الحياة هي لحظة مشحونة بالخطر.

أمرتُ بإحضارِ الفتاة إلى مكتبي وبدأتُ بتحضير آليةٍ متطورةٍ للتنويم المغناطيسي مكوناً من صفين متوازيين من عاكساتٍ صغيرة تدورُ في اتجاهين مُتعاكسين يلعبُ عليها شعاع من الضوء بطريقةٍ تجعل أسطحها تتوهج بالتناوب ووضعتُ كرسياً مريحاً بزاوية مناسبة وقمتُ بتخفيف الأضواء متفائلاً بنجاح العملية حينها أحضر ماكان وآخر من أتباع ريكوري الفتاة ، وضعوها على الكرسي المريح وأمرتُ ماكان بالبقاءِ معي بينما طلبتُ من الآخر المُغادرة.

مصرعُ الساحرة

لم تُبدِ الفتاة أيّ مقاومة ، كانت مُنعزلة تماماً عن ذاتها وشرعت تحدّق بي بذات النظرات الغامضة التي رأيتها حين زيارتي لمتجر الدمى.

أمسكتُ بيديها وقلتُ لها بلطفٍ مطمئن:

«لن يؤذيكِ أحد يا صغيرتي ، فقط اسمحي لنفسكِ بالاسترخاء ، أريدُ مساعدتكِ ليس إلاّ ، يمكنكِ النوم إن رغبتِ بذلك».

لم يبدُ لي أنها سمعت قولي ، قمتُ بعدها بجلب آلة التنويم ووضعتها أمام عينيها الشاحبتين ، فركزّت نظرها مباشرةً عليها مفتونةً بما رأت.

شاهدتُ جسدها يرتخي شيئاً فشيئاً ، وجفونها تتدلّى كستائر من المخمل الزهريّ.

أغمضت عيناها وتنهدّت وبدأت تستجيب لما أقول وتردّ ورائي قولي.

أمرتها بالنوم فامتثلت ، وها هي نائمة حتى أطلب منها أن تستيقظ.

قلتُ لها متهكمّاً:

«سأطرح عليكِ بعض الأسئلة ، ستُصغي إليّ

وستجيبين بالصدق، لا يمكنكِ الإجابة عليها إلاّ بالصّدق»

ردّت بصوتها الطفولي قائلةً.

.«يجب أن أجيب بصدق، أعلم ذلك»

لم أستطع حينها تجاوز نظرات ماكان وريكوري المليئة بالشك والرهبة.

بدأت أسئلتي، واخترتُ أقلها إزعاجاً:

«هل أنتِ ابنة أخت السيدة مانديليب حقاً؟»

أجابت:

«لا»

أعقبتُ:

من أنتِ إذاً؟»

قالت:

«لا أعرف»

دار الحديثُ بعدها كالآتي:

««متى انضممتِ إليها ولماذا؟

«كنتُ أمكثُ في حضانةٍ قبل عشرين عاماً، ملجأً للقطاء في فيينا، قامت بانتشالي منه وعلّمتني أن أدعوها خالتي لكنها ليست كذلك».

«أين عشتما منذ ذلك الحين؟».

.«في برلين، باريس، لندن، براغ ووارسو»

«هل صنعت السيدة مانديليب دماها في كل تلك المدن؟»

لم تُجب، ارتجفت وبدأت جفوتها تهتز بشكلٍ غريب، ذكرتها بأنها نائمة ولا يمكنها الاستيقاظ حتى أطلب منها ذلك، همست:

«نعم».

«هل تمت عمليات قتل في كل تلك الدول؟»

«نعم».

«اين ولدت السيدة مانديليب؟».

«لا أعرف»

«كم عمرها»

«لا أعرف»

ثم ضحكت وقالت إن الوقت لا يؤثر فيها حيث كانت في الخامسة من عمرها حين أخذتها السيدة مانديليب وكانت تبدو حينها كما هي الآن.

أردفتُ:

«هل هي مُتواطئة؟ أعني هل هناك من يساعدها في صناعة الدمى؟»

«نعم، حبيبها في براغ»

صُعقتُ لمجيء وجهها الشبيه بالحصان أمام عيني وصرخت قائلاً:

«حبيبها؟!».

أكملت الفتاة:

«أنا أعرف ما تفكر به ، إن لها جسداً آخر ترتديه حين ترغب ، فقد رأيتها ترتديه عدّة مرات فتبدو جميلة بشكل يخطف الألباب».

«تقتلُ بطريقتين ، المرهم ، والدمى اليس كذلك؟».

«نعم ، بالدمى والشر».

«كم من شخصٍ تم قتله على يدها منذ مجيئها إلى نيويورك؟».

أجابت بشكل غير مباشر:

«لقد صنعت أربعة عشر دمية منذ أن جئنا إلى هنا».

«وكم قتلت هذه الدمى؟».

«عشرون».

«كيف تصنع الدمى؟».

«لا أعرف».

«ما الذي ينشط الدمى؟».

«تقصد يجعلهم أحياء».

«نعم».

«شيء من الموت».

«ما الذي يجعلها حية ، ما الشيء الضروري لإبقائها على قيد الحياة؟».

لم تُجب.
قلتُ:
«يجب أن تجيبي ، يتوجب عليكِ طاعتي».
أجابت:
«سؤالك غير واضح ، لقد أخبرتك أن شيئاً من الموتى يجعلهم أحياء ، فما الذي تريد معرفته أيضاً؟».
«ابدئي من حيث يلتقي الشخص الذي يمثل دمية لأول مرة مع السيدة مانديليب إلى الخطوة الأخيرة التي تصبح فيها الدمية على قيد الحياة».
تكلمت حالمة:
«عندما يموت أحدهم ، تعيش الدمية ، جميعهم يطيعوها».
صمتت للحظة ثم أكملت:
«الجميع عدا واحدة ، ممرضتك ، لقد أبت أن تُطيع خالتي فعذّبتها وعاقبتها ومازالت لا تستطيع السيطرة عليها»
صمتت لبرهة ثم أردفت:
«يجب أن أعود قريباً مع الدمى ، ستأتي إلى هنا خلاف ذلك وإن وجدتني ستقتلني!»
«أين الدمى الآن؟».
«لقد كانوا يعودون إليّ ، لكن رجالك أمسكوا بي في

تلك اللحظة ، سيعودون إليها فوراً إن لم يجدوني»
«ما دور الحبل ذي العقد؟»
«لا اعرف»..

ارتبكت مثل طفلٍ خائف وهمست:
.«إنها تبحث عني ، عيناها تلاحقني ، خبئني أرجوك!»
قلتُ.
.«نامي بعمقٍ صفيرتي ، لن تستطيع إيجادكِ»
همست:
«أنا مختبئة ، لكنها تحوم فوقي».
ترك ماكان وريكوري مكانيهما ووقفا إلى جانبي ، سأل ريكوري:
«هل تعتقد أن الساحرة تلاحقها؟»
أجبتُ:
«لا ، هذا شيء متوقع ، لقد كانت الفتاة المسكينة تحت سيطرة السيدة مانديليب لمدّة طويلة ، لذا تكون ردّ فعلها متوقعٌ جداً»..
«قد يكون نتيجة الإيحاء أو بسبب عقلها الباطن».
صرخت الفتاة متألمة:
«لقد رأتني ، لقد وجدتني!»..

«يداها تمتدّ حول عنقي».

حاولتُ أن أهدئها وأبقيها تحت طوعي لكنها لم تُجب ، ثم صدر صوت أنين خافت من عُمق حلقها.

أقسم ماكان أنه قد سمع صوتاً أجش ، كانت عيناها تلمعان بشكل مريب وشحبَ وجهها وقالت:

«دعها تموت ، سيوفر لك هذا المتاعب».

قلتُ للفتاة بصرامة:

«استمعي إليّ وكوني مطيعة ، سأعدّ إلى خمسة ويجب أن تستيقظي فلا تستطيع الساحرة إليكِ سبيلاً».

بدأتُ أحسب ببطء حتى لا تموت إثر تهديدات عقلها الباطن ، وقبل أن أُكمل ، جاء صوت الفتاة قائلة:

«لقد أمسكتني ، يداها حول قلبي ، إلهي!»

مرّ تشنّج مريع بجسد الفتاة الصغيرة وفتحت عيناها دونما تعابير ، مزّقت قميصها وفحصت نبضها فكان ما يزال طبيعياً ، ثم صدر من حلقها صوتٌ محمّلٌ بالشرّ والازدراء يقول:

«أيها الحمقى!».

إلهي! إنّه صوت السيدة مانديليب.

احرق الساحرة

أثار استغرابي أن ريكوري كان الأقل تأثّراً بيننا نحنُ الثلاثة ، بينما ارتعش ماكان على الرغم من أنه سمع صوت الساحرة لأول مرّة.

كسر ريكوري حاجز الصمت قائلاً:

«هل أنت متأكد أن الفتاة قد ماتت؟».

أجبتُ:

«لا ريب في ذلك يا ريكوري».

أومأ برأسهِ لماكان طالباً منه نقلها إلى السيارة ، سألتهُ عمّا ينوي فعله ، أجاب:

«سأقتل الساحرة ، لا يمكن للسحرة أن ينقسموا في الموت ، سأجعلهم يحترقون في الجحيم معاً وإلى الأبد!».

نظر إليّ بحدّة ثم قال:

..«أم أنك لا توافق على ذلك أيها الطبيب لويل؟».

أعقبتُ متردداً:

«لا أعرف على وجه التحديد يا ريكوري ، كنتُ أنوي قتلها اليوم بيديَّ هاتين ، لكنني تراجعتُ وتلاشى غضبي ليقيني أنّ ما جال في ذهني ينافي قناعاتي

بكيفية إقامة حكمٍ عادي ، وأن ما نفكر فيه يعدّ جريمة قتل!».

ذكّرني ريكوري بحقيقة أن الدمى قد قتلت أربعة عشر نفساً بريئة كما قتلت بيترز على حدٍ سواء ، أردفتُ:

«لا يمكن لأي محكمةٍ أن تنظر لادّعاءاتٍ تحت تأثير التنويم المغناطيسي كدليل ، قد يكون كلامها صحيحاً وقد يكون محض تخيلات ، لذا فلا توجد محكمة على وجه الأرض تأخذ أقوالها كأساسٍ للحكم بدون أدلّة داعمة».

أمسك ريكوري بكتفي قائلاً:

«هل تصدّق في قرارة نفسك أن ما قالته الفتاة حقيقي؟».

تبعثرت الكلمات في حلقي فتعذّر عليّ الجواب؛ لأنني كنتُ متيقّن في أعماقي أن«تلك هي الحقيقة المطلقة».

شجّعني ريكوري قائلاً إنه لا يوجد قانونٌ يستطيع معاقبة ساحرة!

لذا فيجب أن نكون نحنُ جلّاديها.

أشار إلى ماكان ليُخرج الفتاة بجسدها النحيل إلى السيارة ، ثم طلب مني أن آتي معه لأشهد الإعدام.

تردّدت معتذراً منه قائلاً إنني مُنهكٌ جسدياً

وذهنياً ، كما أنني مُحطّمٌ من الحُزن.

أصرّ على مجيئي قائلاً إن لم أذهب بإرادتي فسيأخذني مقيداً ومرغماً؛ لأنني لو بقيتُ هنا فيمكن أن أضعف وأخبر الشرطة ، وذهابي من الممكن أن يجعلني أنتصر على شكوكي العلمية ، وأضاف أنه لن يتراجع حتى لو وقفت والدته بوجهه ومنعته.

وافقتُ أخيراً وطلبتُ من الممرضة أن تحضّر لي ملابسي وطلبتُ أن نبقى معاً؛ لأنني لا يمكّن أن أخاطر بالفرصة الأخيرة!

كان في سيارة ريكوري أربعٌ من رجاله: ماكان ، وتوني ، ولارسون ، وكارتيلو.

أصدرت أوامري اللازمة قائلاً إننا سنذهب إلى متجر الدمى ولكن يجب أن نعلم أنه من الممكن أن تكون الساحرة على علم بمجيئنا ، فمن البديهي أنها قد تنصّتت علينا خلال جسد الشابة المتوفاة.

سألتُ فيما إذا كانت هنالك قضبانٌ على باب المتجر ، فقال ماكان أنه لم يرَ سوى لوح زجاجي.

سألني ريكوري فيما بعد أن أعطيه وعداً بأنني لن أتراجع أو أمنعه عمّا ينوي أن يفعل مهما حدث ، ففعلتُ.

سرعان ما ارتدى ريكوري ملابسه ، وبينما كنّا نتأهبّ خارجين ، دقّت الساعة الواحدة ، تذكّرتُ

عندها أن هذه المغامرة الغريبة قد بدأت منذ أسابيع في ذات التوقيت بالضبط!

ركبت المقعد الخلفي من السيارة مع ريكوري، تتوسّطنا الشابة المتوفاة، ولارسون وكارتيلو، بينما كان توني يقود السيارة ويجلس ماكان إلى جانبه.

كانت السماء ملبّدة بالغيوم والرياح الباردة تهبّ على الخليج، ارتعش جسدي لكن ليس من برد.

وصلنا إلى شارع متجر الدمى فلم نرَ أحداً،

كان الأمرُ كما لو أننّا دخلنا مدينة أموات.

كان قلبي ينبض بشكلٍ غير منتظم، كما بدا السواد الذي هيمن على السماء وكأنه يبتلع وهج المصابيح، وسط عتمةٍ غطّت متجر الدمى بالكامل، بينما تجمّعت الظلال في الشارع وأخذت الريحُ تتأوّه على وتيرة واحدة مع صوت أمواج البحر.

تساءلتُ عمّا إذا كان بإمكاني المرور خلال الحاجز الذي وضعته الساحرة في المدخل أم أنّني لازلتُ ممنوعاً من ذلك.

خرج ماكان من السيارة حاملاً جثّة الفتاة ثم تبعنا ريكوري بخطوات بطيئة نحو متجر الدمى.

اجتاحني ذات الشعور بأنني في كابوس كما شعرتُ منذ أول خطوة سلكتها في طريق متجر الدمى هذا.

بدأ ماكان بوضع مادة صمغية بشكلٍ دائرة على الباب الزجاجي ومن ثم نقر عليه بكأسٍ مطاطي، فخرجت الدائرة في يده، مدّ يدهُ وفتح مقبض الباب.

تمّ كل شيءٍ بهدوء ودون أدنى صوت ثم دخلنا إلى متجر الدمى فكان كل شيء ساكناً ويحمل في طيّاتهِ رائحة الموت، حيث كنتُ أستطيع رؤية الباب المؤدي إلى الممر ذي الغرفة المشؤومة.

مررنا عبر ذلك الممر حتى وصلنا إلى باب الغرفة الخلفية، ففُتح قبل أن يلمسه أحد منا ثم سمعنا صوت صانعة الدمى الشرير وهي تقول:

«تفضّلوا أيّها السّادة، يسّرني أنكم أعدتم لي أبنة أختي العزيزة، كنتُ سألتقيكم عند الباب بيد أنّي عجوزٌ وخجولة!».

نقل ماكان جثة الفتاة إلى جانبه الأيسر وأمسكها مثل درع، وأمسك بيده اليمنى مسدساً، وضع يديه على الزناد فدفعهُ ريكوري بعيداً.

ألقيتُ نظرةً سريعةً حول الغرفة، حيث جلست صانعة الدّمى على طاولتها تخيط بهدوءٍ ودون أدنى اضطراب.

تراقصت أصابعها الطويلة البيضاء على أيقاع غرزها ولم تكن تنظر نحونا.

كان هنالك جمرٌ يحترق في المدفأة مما جعل الغرفة دافئةً للغاية ، فيما ملأت رائحةٌ عطرية غير مألوفة أرجاء المكان.

نظرتُ نحو خزانات الدمى فكانت جميعها مفتوحة ، تقف الدمى بداخلها صفّاً تلو الآخر ، تحدّق فينا بعيون زمردية ، وزرقاء ، وسوداء ، كما لو كانت أقزاماً في معرض.

كانت الدمى ترتدي أزياءً مختلفة مما يعني أنها نهبت العديد من الأراضي وقتلت الأبرياء من كل عرقٍ ولون.

بدت الدمى وكأنها على وشك القفز لتقضي علينا.

تمالكتُ أعصابي وأجبرتُ نفسي على المواجهة ، كانت هنالك خمس خزانات خالية ، هذا يعني أنّ الدمى الأربع التي واجهتني لم تكُن موجودة ، بالإضافة إلى دمية والترز.

نظرتُ مرّةً أخرى إلى صانعة الدمى التي كانت ماتزالُ تخيط بنفس الهدوء كما لو كانت جليسة وحدتها بينما وضعت دمية والترز أمامها على الطاولة.

كانت يداها الصغيرتان مقيّدتان برسغيها بحبالٍ ملتوية من الشعر الرمادي ، ممسكةً بمقبض دبوسٍ مرتبطٍ بخنجر.

نما الصمتُ في هذا الأثناء كما الرائحة العطرية، فأصبح كحاجزٍ بيننا وبين السيدة مانديليب.

أسقط ماكان الجثة على الأرض وحاول الكلام عدّة مرات فلم يستطع، حتى نجح في المحاولة الأخيرة وقال لريكوري بصوت خشن:

«أقتلها أو سأفعل أنا!».

وقف ريكوري جامداً دونما حِراك، موجهّاً مسدسه نحو قلب صانعة الدمى وعينيه متشبثتان بيديها الراقصتين، حيث بدا وكأنّه لم يسمع قول ماكان، أو أنه سمع ولم يكترث.

استمرت صانعة الدمى تخيط وتغنّي بصوتٍ هامسٍ بدا وكأنه طنين نحل ساعة إنتاج الشهد، تحرّك ريكوري ليضرب صانعة الدمى فتحولّت أصابعها البيضاء إلى أخرى بشعةٍ وملتوية، ثم انحنت للأمام مع دماها اللاتي بدت وكأنها شموساً سوداء مُلتهبة تتراقص فيها نيرانٌ قرمزية صغيرة.

أحسستُ أنها بدأت بالسيطرة علينا فقد بدت مثل موجةٍ ملموسة شعرتُ أنّها تصطدم بي وكأنها شيءٌ ماديّ، تبعها ذلك الخدر متسللاً من خلال جسدي الهزيل.

رأيتُ يد ريكوري التي كانت تمسك بالمسدس،

ترتعشُ.

كنتُ أعلمُ أنها مصابةٌ بذات الخدر الذي اجتاحني والآخرين ، مما يعني أن صانعة الدمى قد حاصرتنا مرةً أخرى.

همستُ محذّراً ريكوري من النظر في عينيها مباشرةً!

حاولتُ بجهدٍ مزّق إرادتي إلى أشلاء ، انتزاع دمية والترز من بين براثنها الشريرة إلا إنّني لم أستطع ذلك فقد كانت أسرع مني ، ثم صرخت بصوتٍ ينبض بالحياة مما زاد من سرعة سريان الخدر في جسدي وقالت:

«لن تستطيعوا النظر إليّ أيّها الحمقى!»

بدأ النفاث العطري يزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبح ضباباً أخفى ملامح الساحرة ما خلا عينيها المتوهجتين ، وبعد لحظاتٍ تلاشى الضباب لتظهر امرأة ذات جمال أخّاذ ، طويلة ، ونحيلة ، وكأنها غصن بان.

كانت عاريةً بشكل تام ، وشعرها أسود فاحم يصل إلى ركبتيها ، بينما التصقت دمية والترز بين نهديها المستديرين.

سقط مسدس ريكوري من يده كما سقطت أسلحة

رجاله وسط ذهولٍ وأبصارٍ شاخصة.

أشارت إلى ريكوري وأطلقت ضحكةً شريرة وقالت:

«كفى يا ريكوري ، لن تتمكّن من فعلها مهما حاولت!».

انحنى ريكوري ليلتقط سلاحه ، فتمّ تقويم جسده بسرعة كما لو كانت هنالك يد قد تشبثّت بذقنه ودفعته.

لاحظتُ بعد ذلك صوت طقطقة أقدام ، ليمتثل أمام ناظري تلك الدمى التي هاجمتني ذاتها ، وقفوا عند قدمي الساحرة ووجهوا خناجرهم صوب قلوبنا مثل سيوفٍ صغيرة.

ملأ صوت ضحك الساحرة المكان مرّة أخرى وقالت:

«لستُ بحاجةٍ إليكم يا صغاري».

أشارت إليّ وأعقبت:

«أنت تعرف أن جسدي مجرد وهم وسراب ، أليس كذلك؟».

أومأتُ بالإيجاب.

أكملت:

«وصغاري أيضاً أوهام؟».

قلتُ إنني لا أعرف.

أردفت بتهكّم:

«أنت تعرف كثيراً أيها الطبيب الحكيم والأحمق! لذا

فيجب عليك أن تموت».

استدارت إلى ريكوري ورجاله وقالت لهم الشيء ذاته ثم أضافت:

«جميعكم ستموتون ولكن ليس هنا، بل في منزلك أيها الطبيب الحكيم، ستذهبون من هنا بهدوء وحين بلوغكم مبغاكم، سيمزّق أحدكم الآخر إلى أشلاء بلا رحمة، وكأنكم ذئاباً متوحشة».

ترنّحت خطوة للوراء، ثم رأيتُ - أو اعتقدت أنني رأيتُ - دمية والترز تتلوى.

ثم سرعان ما رفعت يديها وطعنت الساحرة في منتصف حلقها ولفّتهُ بوحشية، تماماً كما قُتل برايل، فأطلقت ذات الصرخة المخيفة التي تنبئ عن عذابٍ واحتضار.

أمسكت الساحرة دمية والترز ومزّقتها من منتصف صدرها ورمتها نحو الموقد فتدحرجت ولمست الفحم المُشتعل.

انبعث منها حرارة شديدة كتلك التي انبعثت حين أحرق ماكان دمية بيترز، عندها فقط اختفت دمى الساحرة وتحولّت صانعة الدمى إلى جسدٍ كهلٍ وبشع بعينين عمياوين، ثم أمسكت حلقها الممزّق بأصابعها التي تحولت إلى لونٍ قرمزي جراء دمائها الشريرة التي

غطّت بنانها.

توقفت للحظة ثم سقطت أرضاً ، انكسرت حينها التعويذة التي كانت تشلّ حركتنا ، وذهب ريكوري مباشرةً نحو جسد صانعة الدمى وبصق عليه قائلاً:

«احترقي أيتّها الساحرة ، احترقي!».

وبعد هنيهة ، أشار إلى بقية الدمى الموجودة في المتجر والتي عادت محض دمىً تخلو من سحنة الحياة.

التهمت النيران الستائر وبدأ اللهب يقفز كأنه روحاً جاءت لتنتقم.

خرجنا عبر الممر إلى خارج المتجر بسرعة كبيرة وركبنا السيارة ، ثم رأينا أن النار قد التهمت المكان بأكمله ولم يبقَ منه سوى رمادٌ وبعض اللهب الأحمر.

تحركنا من هناك بسرعةٍ شديدة وهربنا بعيداً إلى حيث لا شر ولا شعوذة.

الحكمة المُدلهمّة

مرّت ثلاثةُ أسابيع على وفاة صانعة الدّمى ، لقد صنعوا تماثيل على غرار شكلي ، سلبوا أنفاسي ونزعوا شعري ومزقّوا ثيابي ومنعوا قدمي من الحِراك عن طريق التراب ، و بزيتِ أعشابٍ ضارّةٍ دهنوا حروقي ، وإلى مصرعي قادوني ، يا إله النار احرقهم في جحيمك!

جلستُ أنا وريكوري لتناول طعام العشاء في منزلي.

ساد بيننا الصمت لدقائق فقمتُ بكسرهِ بهذا الرجاء الإلهي الذي بدأتُ به هذا الفصل الختامي من روايتي ، وبالكاد أدركتُ أنني تحدثتُ بصوتٍ عالٍ ، سألني ريكوري بحدّة عمّن اقتبستُ عنه هذا الدعاء؟

أجبت:

«من لوحٍ من الطين ، كتب عليه بعض الكلدانيين في أيام (آسورنزير بال) قبل ثلاثة آلاف سنة»

أعقب:

«لقد حكوا قصتنا كاملةً بهذا النّص المكتوب قبل ثلاثة الاف سنة!»

يبدو أنهم عانوا من الشرّ منذ ذلك الحين ، وعرفوا

علاجه، تماثيل بشرية، مرهم ضار، وأعشاب، وموت، ونار!

«إنّها قصتّنا كلها أيها الطبيب لويل!».

أجبتهُ موضّحاً:

«إنّ الدمى القاتلة أقدم بكثير من الكلدانيين يا ريكوري، لقد تتبعتُ إثرهم منذ الليلة التي قُتل فيها برايل، وهي مسيرةٌ طويلة، حيث تم العثور عليها في مواقد قديمة جداً تعود لعشرون ألف سنةٍ قبل التاريخ، لقد وجدوا دمى من الصوان، ودمى من الحجر، ودمى تم نحتها من أنياب الماموث أو عظام دببة الكهوف، يبدو أنهم يمتلكون تلك الحكمة المُدلهمّة منذ ذلك الحين».مكتبة .. سُر مَن قرأ

أومأ برأسه وبدأ يحدّثني عن شيءٍ ما بدا مثل قصةٍ شبيهة بقصتّنا:

«كان لدي صديق أجنبي انتقل للعيش في نيويورك، سألتهُ عن سبب انتقاله فأخبرني قصةً لا تخلو من غرابةٍ وشر، حيث بدأ بسردها قائلاً:

كانت هناك فتاة في قريتي الأم، عرفتُ من خلالها أشياءً لا يجب على أي مسيحي معرفتها، كانت الفتاة جميلة ومرغوبة لكنني لم أستطع أن أحبها.

وفي أحد الأيام كنتُ عائداً إلى المنزل من الصيد،

مررتُ بجانب كوخها فنادتني وقدّمت لي خمراً ، شربته لأنني كنتُ عطشاناً بشدّة.

وبعد أن اصبحتُ ثملاً ، سمحتُ لها بأن تقصّ بعضاً من شعري ، وقصّت أظافري كما أخذت قطرة دم من معصمي وطلبت مني أن أبصق لتأخذ بعضاً من لُعابي أيضاً ، هذا كل ما أذكره وقتها.

وبعد أن عدتُ من كوخها توجهّتُ مباشرةً نحو الكنيسة ، وبينما كنتُ جاثياً أصلي وأدعو ، تذكرت ما فعلت بي تلك المرأة وألهمني الله أن أعود لأرى ماذا حلّ بما أخذته مني المرأة صاحبة الكوخ.

وبالفعل ، ذهبتُ إلى هناك مسرعاً وتسللّت من خلف الكوخ وبدأتُ أراقبُ خلال النافذة ، فرأيتها تعجن العجين على موقدٍ من نار ، بدا لي في بادئ الأمر أنها تصنع خُبزاً وأنني ظلمتها ، وبعد هنيهة ، بدأت تضيف أظافري ، وشعري ، ودمي ، وبصاقي إلى العجين وتعجنهم معاً بقوّة ، ثم بدأت تشكّل رجلاً صغيراً من ذلك العجين ، رشّت الماء على رأسه وعمّدته بكلمات غريبة لم أفقهها. كنتُ شجاعاً جداً لأستمر بالمراقبة ، لفّت الدمية تحت مئزرها وخرجت من الكوخ فتبعتها ، لقد كنتُ حطّاباً فسرتُ بهدوء دون أن تعلم بوجودي.

لقد وصلت إلى مُفترق طرق حيث أصبحَ بإمكاننا

رؤية القمرِ بدراً . صلّت بترانيم خاصة بالقمر المُكتمل ثم حفرت حفرة ووضعت فيها الدمية المصنوعة من العجين ثم دنستّها ونادت باسمي ثلاث مرات قائلة: «زارو ، زارو ، زارو ، أنا مُتيمةٌ بك ستركض ورائي كالكلب عندما يركض وراء الكلبة . عندما تتعفنُ هذه الصورة أنتَّ لي يا زارو روحٌ وجسد إلى أبد الآبدين».

أهالت التراب فوق الدمية فقفزتُ عليها وخنقتها كنتُ سأخرج الدمية لكنني سمعتُ أصواتاً ملأت روحي بالوجن فأخذتُ أركضُ مُبتعداً عن القرية وشققتُ طريقي بعدها إلى أميركا.

عندما كنت في الخارج يوماً في تلك الرحلة شعرتُ بأن يديَّ مشدودتان وأنَّ إرادتي تجرني رغماً عني نحو سكك الحديد ومن ثم إلى البحر لأسلك طريق العودة إلى القرية والفتاة.

كنتُ أعلمُ أن هذا ما هو إلا سحرٌ أسود قضى على يدي تلك الفتاة ذات الحكمة المُدلهمة لذا فقد حاربتُ إرادتي ليلةً بعد ليلة لم أكن أجرؤ على النوم طيلة تلك الفترة؛ لأنني كنتُ أحلم بأنني أشقُّ طريق البحرِ عائداً إليها فأستيقظُ ثلاث مراتٍ في الوقت المناسب لأجد نفسي واقفاً على شاطئ البحر محاولاً رمي نفسي في غياهب ذلك اليّم.

وبعد عدة أشهر تمكنت من السيطرة على إرادتي مجدداً لكنني بقيتُ خائفاً حتى وصلتني أخبارٌ من القرية مفادها بأن هناك شخصاً قام بقتل تلك الفتاة فانقلب السحر على الساحر وهذا ما نسميه الحكمة السوداء أو الحكمة المُدلهمة).

قلتُ له معقباً على كلامهِ:

«من الغريب أن تقول ذلك يا ريكوري ، أنت تتحدثُ عن الحكمة الدكناء التي تنقلبُ على من يأمرُ بها والتي تقوم على ثلاث ركائز أساسية وهي الشهواتُ الثلاث (الحب ، الكراهية ، القوة) ، هل تعرف من هو أول صانعٍ للدمى عرفهُ التاريخ؟».

أجاب بالنفي.

أردفتُ:

«كان إلهاً اسمهُ خنوم شكل اثنان من الدمى في جنةِ عدن ، لكنه منحهم أمرين فقط لا غير وهما الحق في المعاناة والحق في الموت.

كان خنوم إلهاً أرحم بكثيرٍ من هؤلاء الساحرات؛ لأنهُ لم يكن يرغبُ للدمى أن تعاني بل كان يحب رؤيتهم مستمتعين في حياتهم القصيرة.

كان خنوم كبير السن لدرجة أنه حكم مصر قبل وجود الأهرامات وأبو الهول ، كان له أخ اسمه كفير

وكان له رأس خنفساء ، كان كافراً حيث إنهُ من أرسل فكرة السحر الأسود مستغلاً قوة أخيه.

كان عملُ خنوم هو الوصول إلى أرحام النساء وتشكيل جسد الطفل الذي يرقد بداخله لذا فقد أطلقوا عليه اسم الخزاف وهو الذي بأمرٍ من آمين ، شكلَّ جسد الملكة هات شيبسوت العظيمة التي انجبتها آمين على الأقل كان هذا ما كتبهُ الكهنة في أيامهم الغابرة.

ولكن قبل ذلك بألف عام كان هناك أمير أحبهُ اوزوريس وايزيس كثيراً لجمالهِ وشجاعته وقوته.

لم يكن هناك على وجه الأرض كما اعتقدوا امرأةً تناسبه لذلك قاموا باستدعاء الإله خنوم ليصنع لهُ امرأةً تليقُ به لذا فقد جاء بأيدٍ طويلة البنانِ مثل يد السيدةِ مانديليب فشكلَّ من خلالها الطين إلى امرأة جميلة جداً لدرجة أن الإله ايزيس شعرت بالغيرة والحسد لذا جعلوا الأمير يغط في نومٍ عميق ووضعوا المرأة بجانبه وقارنوهما وللأسف كانَت صغيرةً جداً وغير منسجمة معهُ لذا صنع خنوم واحدةً أخرى لكنها كانت كبيرةً جداً ولم يتم تحقيق الانسجام الحقيقي إلا بعد تشكيل ستة دمى وتدميرها حيث أُعطي الأمير المحظوظ زوجة مثالية.

وفي زمن رعسيس الثالث حدث أن كان هناك رجل سعى ووجدَ سرَّ خنوم بعد أن قضيَّ الأمر وانتهت حياته ، كان شيخاً هرماً لكنه كان عازماً على معرفة سر الإله خنوم وشعر بضرورة وجود نموذج من صنعهِ فكان زوجات فرعون هنَّ النماذج الأمثل لاستخدامها تباعاً فصنعَ هذا الرجل دمى بشكل ومظهر نساء فرعون وصنعَ دميةً أيضاً على شكل فرعون نفسه.

وعندما جاء فرعون الحقيقي نزل خنوم من السماء ولمس الدمى التي صنعها ذلك العجوز وشرع يقبضُ أرواحها لتعود مجرد دُمى ، يمكنك العثور على وصفٍ مفصلٍ للقصة منذ البداية وحتى المحاكمة في برديةٍ توجد في متحفِ تورين بالإضافة إلى كتلوج يعرض التعذيب الذي تعرض له الساحر قبل إحراقه.

ليس هنالك ريبٌ في وجودِ هذهِ القصص؛ لأن ورق البردي أصيل ولكن ما هو الواقع الذي يكمن خلفها هل القصة سجلٌ آخر للخرافات؟ أم أننا نتعاملُ حقاً مع السحر الأسود والحكمة الدكناء؟!

قال ريكوري:

«هل ما زلت غير مقتنعٍ بواقع السحر الأسود أيها الطبيب لويل».

لم أُجب ، تابعت:

«الحبل المعقود أو سلم الساحرة هو أقدم وثيقةٍ في التشريع الفرنكي أو قانون ساليك الذي تم تقليصهُ إلى شكل مكتوب منذ حوالي ألف وخمس مائة عام والذي نص على أقصى العقوبات لمن يربطُ عقد سلم الساحرة وأنت تدرك أن كل ما اقتبستهُ آنفاً هو محض أساطير بدون أساس مثبت للحقيقة العلمية.

دفع كرسيّهُ بعنف وحدّق بي بتهكّم:

«هل ما زلت تعتقد أن العمل الشيطانيّ الذي شهدناه يمكن تفسيرهُ من حيث العلم الذي تعرفهُ؟».

أجبتُ:

«لم أقل ذلك يا ريكوري ، أنا فقط أقول إن السيدة مانديليب كانت منومّةً مغناطيسياً بقدر ما كانت عاشقةً للوهم».

امتعض ريكوري قائلاً:

«أتعتقد أن دُماها كانت محض أوهام؟»

أجبتُ بشكلٍ غير مباشر:

«أنت تعرف مدى واقعية هذا الوهم بجسدٍ جميلٍ تلاشى أمام الواقع الحقيقي لوجود النيران».

قاطعني مرّة أخرى:

«الدمى اللاتي قتلت كل أولئك الأبرياء ، ما هي إلّا وهماً من وجهة نظرك؟»

أجبتُ:

«نعم ، أوهام محكومة بالإكراه المهووس أن تحيط نفسها بتماثيل أولئك الذين قتلتهم عن طريق الجهل المُطبق على عقولهم ، كما حملت مارغريت دي فالو ، ملكة نافار ، باستمرار معها القلوب المحنطّة لعشرات العشّاق الذين ماتوا هياماً بها ، هي لم تقتلهمُ فعلاً لكنّها أدركت أن حبّها كان السبب فبدا الأمر وكأنها خنقتهم بيديها.

المبدأ النفسي المتضمن في القلوب المحنطة ودمى السيدة مانديليب واحد».

بدا ريكوري معترضاً على قولي وغير مرتاحاً.

أعقبت:

«لقد قتلت السيدة مانديليب نفسها أيضاً بنفس الطريقة ، بنفس الجهل الذي زرعتهُ في قلوب ضحاياها ، لذا حين ظنّت بأنّ دمية والترز ستنتقم لها وتُصلح الخطأ الذي ارتكبته ، فاجأتها بأنها انتقمت لبرايل بنفس الطريقة التي قُتل بها ، وأنقلب السحر على الساحر ، وهذا هو مبدأ السحر الأسود».

بدا ريكوري خلوّاً من أي تعبير ، صرخت باسمه بذعرٍ شديد محاولاً إفاقتهُ ، فأستجاب بصعوبة قائلاً:

«اذهب إلى الجحيم بعلمك أيها الطبيب لويل»

أردفت:

«لا أنكر أن السحر والسحرة يدأ بيد مع الشر ، وأن ماندليب كانت ساحرةً وهي الآن تحترق في الجحيم كما يجب أن تكون ، بينما تنعم والترز (أداة الخير) في جنات النعيم في خلودٍ و قرار».

كان صامتاً يرتعشُ من فرط الوجل ، أمسك بكتفي وقال:

«قل لي أيها الطبيب لويل ، بصدقٍ ، كما لو كنت واقفاً أمام عرش الله ، أتؤمنُ حقاً بتفسيرك العلميّ هذا؟»

أجبتُ:

«لا ، ريكوري ، و لا هم أيضاً»







cemetery.of.books



burn witch burn

رواية عن دُمى قاتلة مُسيطر عليها من قبل ساحرةٍ شريرة، لن تشعر بالراحة أبداً حيال دميةٍ أخرى بعد قراءة هذه الرواية العبقرية.

ادخلوا عالم متجر الدمى هذا بأفئدةٍ قوية واستعدوا لخوض التجربة الأكثر إثارة وخطورة على الأطلاق.

رواية ساحرة وغير تقليدية، مثيرة ومستفزّة للعقول حيث يترك المؤلف أسئلة أكثر من الإجابات لتخرج من تحت بنانه قصّة تقشعر لها الأبدان.

هي مخيفة إلى حدّ الدهشة، ومزيج ممتاز من الرهبة والتساؤلات الممتدّة على طول القصّة.

تُعد من الروايات الأكثر تأثيراً من بين روايات السحر والدمى الحيّة، وهي الأكثر براعة وإخافة ويُنصح بها بشدّة.




ISBN 978-9922-9369-7-0
9789922936970